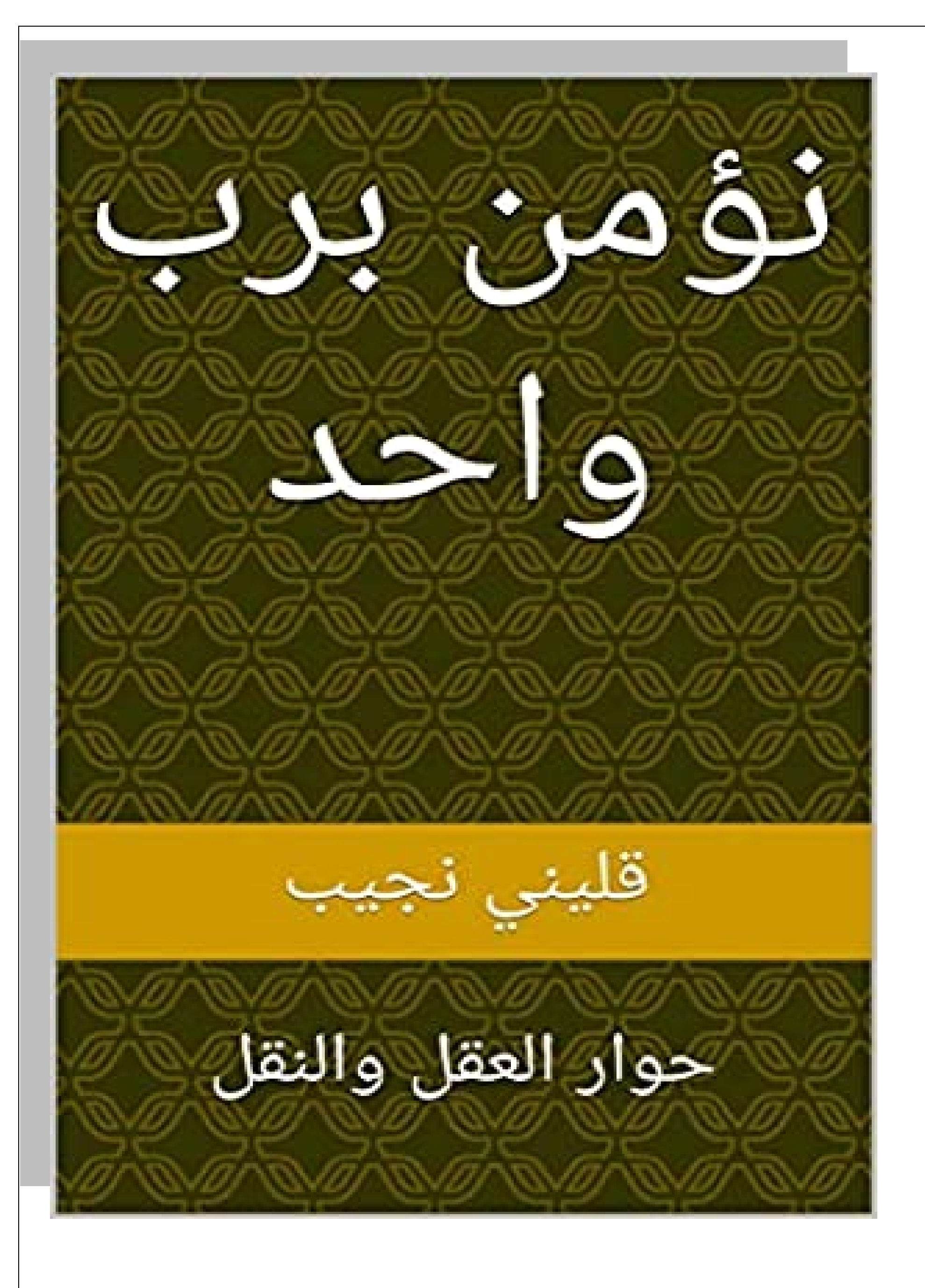

نؤمن برب
واحد
قليني نجيب
حوار العقل والنقل

بيانات الكتاب

اسم الكتاب: نؤمن برب واحد (وموضوعات اخرى)

اسم المؤلف: قليني نجيب

الترقيم: (ASN : B086SJZZ4G)



الموضوعات



المُـحرك الأول

في أحد الأيام كنت برفقة مجموعة من السائحين داخل المتحف المصري والذي يضم في جنباته ما يتجاوز المئة وعشرين ألف قطعة أثرية. وتوقفت بهم عند أشهر تماثيل الآلهة والملوك والنبلاء والأفراد، وغير ذلك من القطع الفنية المصنوعة من الحجر والخشب والبردي والكتان والذهب والفضة والأحجار الكريمة. وتأرجح الحديث ما بين التاريخ والفن والميثولوجيا.

وأثناء توجهنا من المتحف الى هضبة الجيزة، حيث لا تزال أهرامات خوفو وعائلته تناطح المكان وتضني كاهل الزمان، دار حوار بيني وبين أحدهم عن حقيقة وجود الله –وكان معظم المجموعة لا يعتد بوجوده.

هناك على سفح الهضبة، بدأت أعرض عليهم النظرية تلو النظرية مما قيل بشأن الكيفية التي شيد بها القدماء حبور ملوكهم. وكيف تطور البناء من المقبرة البسيطة، الى الهرم الكامل، مروراً بالمصطبة فالهرم المدرج ثم الهرم المنحى، وحتى وصلنا الى هرم خوفو الأكبر، والذي ما زال يثير العجب والذهول عند كل من شاهده أو قرأ عنه.

وبعد ذلك قلت لهم أنه منذ حوالي أربعة الآف وخمسمائة عام، أن مليونين وثلاث مئة ألف حجر، يتراوح وزن كل منهم ما بين طُنين، وخمسة عشر طُناً، قد إقطُتعت من محاجر طرة على الضفة الشرقية من النيل. ثم إنتقلت الى حيث يرقض الهرم الأكبر الآن، قاطعة مسافة تقدر بنحو عشر أميال. هذا بخلاف الأحجار الجرانيتية التي تغطي وتكسوا حجرات الدفن، والتي جُلبت من جنوب

مصر، من مسافة تزيد على خمسمائة ميل. ثم تَهندمت ورُصَّت فوق بعضها وفقاً لتلك الهندسة العجيبة. وكل ذلك تم بمحض الصدفة !

وعندئذ، إنفجرت ينابيع الضحك من حناجرهم، فقلت لهم:

إذا كنتم لا تعقلون أن يكون هذا الهرم قد بُني بمحض الصدفة، فكيف تعتقدون بوجود الكون بما فيه من مجرات وما بها من نجوم وكواكب وكائنات. كيف لهذه ان توجد بتلك الصدفة عينها التي أَحَلْتُم اليها المعقول واللاّ معقول ؟! كما أَحَلْتُم إليها تلك التعقيدات الهائلة التي توجد بالكائنات الحية وعلى رأسها مخ الإنسان ؟!

وكيف ترفضون مبدأ الخلق من العدم، وفي نفس الوقت تصدقون نظرية الإنفجار العظيم (Big Bang) التي تقول بصدور الكون عن كتلة صغيرة تعادل قبضة اليد، يقول العلماء أنها إنفجرت منذ نحو(13,7) مليار سنة. وإذا كان ذلك قد حدث بالفعل، فمن الذي أوجد تلك المادة ؟ ومن الذي منحها تلك القدرة على الإنفجار في ذلك التوقيت دون غيره ؟ وكيف لهذا الإنفجار أن يُحدث نظاماً كونياً، ولا يُحدث فوضى كما تعلمنا التجربة ؟ وكيف تخرج الحياة من النار والأحجار؟ فمن غير المعقول أن يكون ذلك كله قد حدث بمحض الصدفة أو من تلقاء نفسه دون أن يكون وراءه عقل مدبر وقدرة غير محدودة.

إن الفكر الوثني القديم، وعلى الرغم من بدائيته، لم يقل بهذه الصدفة التي يقول بها المستعقلون اليوم، بل إنه كان يعتقد بإستحالة صدور شي عن غير علة؛ فأحال الأشياء الى قوى خارجة عن الطبيعة. وجعل لكل عنصر من

عناصرها رباً عبده. فتصور أن للشمس والقمر والنهر وغيرها من الموجودات قوى أوجدتها، وتهيمن عليها وتَضْمن لها إستمرار البقاء.

وفي إطار تصوره لوجود علاقة تلازمية بين العلة والمعول، أو بين المصدر والصادر عنه، فإنه خلع الصفات المعنوية والحسية للموجودات على من تصوره مصدراً لها. فعندما نظر الكائنات الحية على جنسين: ذكراً وأُنثي، أنه تصور الأرباب كذلك. وعدما وجد أن كل ذكر وأُنثى يتكاثران بالتزواج، فإنه إعتقد أيضاً بزواج الآلهة وتناسلها. فتزوج أُوزيريس من إيزيس وأنجب منها حورس. وإلتقى جب (الأرض) بـ نوت (السماء)، وأسفر لقاؤهما عن ولادة شو (الهواء). وقال السومريون بولادة إنليل من إختلاط (آن) رب السماء بـ (كي) ربة الأرض. وقال الإغريق أن زيوس بنى بـ هيرا وأنجب منها أثينا وإخوتها وأخواتها. وغلب الظن أن تلك الآلهة كانت ملوكاً ورؤساء عشائر، وتم تقديسهم في حياتهم، وتأليههم بعد مماتهم. خاصة وأن عادة تكريم البشر كانت ولا تزال سارية الى يومنا هذا، لا تفرق بين زاهد في متع الحياة وفي شهوة النساء، وبين طاغية يحترف القتل وسفك الدماء. كلاهما مُكَرَّم. فالناس يقدسون الأتقياء لورعهم، والطغاة لبطشهم.

ثم تطور الفكر وإرتقى عند الإغريق في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، فثاروا على هذه المبادئ التي دارت في أروقة المعابد. ونظروا الى الوجود نظرة أكثر معقولية. بدأت فكرتهم بسيطة على يد فلاسفة المدرسة الإيونية: طاليس، وانكسيمانس، وانكسيمندر، وبارمينيدس؛ ثم ارتقت في المدرسة الآثينية على يد سقراط وافلاطون وأرسطو. ففي إيونيا، إقتصر الوجود عند الفلاسفة على ما رأوه بأبصارهم، وما لمسوه بأيديهم من تلك الموجودات المادية التي تتشكل عناصرها من الماء والتراب والهواء والنار -على حد قولهم.

وفي الوسط الآثيني، واصل الفكر إرتقاءه، فنحا به افلاطون نحو المثالية معتقداً بوجود عالمين: عالم روحاني، وعالم مادي. الأول حقيقي، والثاني خيالي. وأرجع الأول الى كائن أعظم يمثل الخير المطلق. ونسب العالم المحسوس الى وسيط بينهما أسماه اللوجوس. وعبر عن إدراكنا للعالمين بمثل سجناء الكهف، هؤلاء المقيدون في جدار ينعكس عليه ظلهم من خلال شعاع من الضوء ينفذ إليهم من خلال فوهة الكهف، فلا تتجاوز مداركهم الموضع الذين يقبعون فيه.

ثم قفز أرسطو بالفكر قفزة لم يسبقه إليها من فلاسفة عصره سابق، ولم يلحقه بها منهم لاحق، عندما رد الوجود الى كائن أعلى مغاير ومفارق. وقدم لإثبات وجوده دليلاً، عرف بإسم المحرك الأول. وقد غدي هذا الدليل العقلي بمثابة برهان نقلي تداوله المشتغلون بالإلهيات لإثبات وجود الله. فتبناه القديس توما الإكويني، وقال فيه شارحاً بأن "كل متحرك فهو يتحرك من آخر، لأنه لا يتحرك شئ، إلأ بإعتبار كونه بالقوة الى ما يتحرك اليه. إذ ليس التحريك سوى إخراج شئ من القوة الى الفعل. واخراج شئ الى الفعل لا يمكن أن يتم إلأ بموجود بالفعل..وهنا لا يجوز التسلسل الى ما لا نهاية. فإذا لابد من الإنتهاء الى محرك أول غير متحرك من آخر هو الله".

وليس المقصود بالحركة هنا حركة النقلة أو حركة النمو أو حركة الإستحالة؛ وإنما يقصد حركة الخلق والإبداع. ومثال التحريك من القوة الى الفعل، مثال الشجرة التي ينوي النجار ان يحولها الى منضدة، فهي تظل منضدة بالقوة، أي في عقله فقط، الى أن ينشرها ويجعلها منضدة بالفعل. ولا ينتقل الشئ من القوة الى الفعل بدون فاعل. ويقصد بالحركة هنا الفعل الخلاق. وان كل حركة، أو

كل فعل خلاق، سبقته حركه، حتى ننتهي الى موجود بذاته لم يتحرك من غيره، هو الله تبارك إسمه.

ولتبسيط الامر نقول: من أوجد زيد؟، أبوه. ومن أوجد أبا زيد؟، جد زيد.. وهكذا، الى أن نصل الى آدم. ومن أوجد آدم ؟ الله جل وعلا. وقس على ذلك باقي الموجودات. فكلها تنتهي الى الله واجب الوجود.

ومن خلال برهان (الإني واللمي) لأرسطو، أكد الإكويني على ضرورة وجود خالق للكون. وذلك عن طريق الاستدلال على وجود العلة الغائبة من خلال المعلول الحاضر. وقد عبر الإكويني عن ذلك بقوله: "لأنه متى كان معلول أوضح لنا من علته، فإننا نتأدى بالمعلول الى معرفة العلة...فإذن، لما كان وجود الله ليس بيِّناً بذاته لنا كان مُبَرْهَناً بآثاره البينة لنا".

والأمر يشبه إعتقادنا في الجاذبية الأرضية والقوى الكهرومغناطيسية. فنحن وإن كنا لا نراها بأعيننا؛ إلأ أننا نستدل على وجودها من خلال تأثيرها في الأشياء التي تحركها. أي أننا نستدل على وجود الله الغير مدرك من خلال أعماله التي ندركها. وكما أن الهرم، ذلك المعلول العجيب الذي نراه، على ضرورة وجود مهندس عبقري وبنائين أشداء لم نراهم؛ فإننا كذلك نستدل على وجود المهندس الاعظم لهذا الكون، والذي لا نراه، من خلال النظام الكوني العجيب الذي نراه. كما يقول المرنم في المزمور: "السماوات تحدث بمجد الله، والفلك يجب بعمل يديه"(مز 19). ويقول القديس بولس:"لأن أُموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مُدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته"(رو2).

وكما أن الهرم لم يبن من تلقاء ذاته، والطائرة لم تصنع من تلقاء ذاتها، كذلك أيضاً العناصر الكونية الهائلة لا يمكنها أن توجد وأن تعمل بهذه الدقة المعجزية من تلقاء ذاته.

وقدم الإكويني، نقلاً عن أرسطو، برهاناً آخر على وجود الله هو برهان(الممكن والواجب). وهو يفضي أيضاً الى إمتناع وجود الممكنات(المخلوقات)، بدون وجود كائن واجب الوجود، أي يكون وجوده ضرورياً وليس ممكناً، قال: "إننا نجد في الأشياء ما يمكن وجوده وعدمه، وما هو كذلك لا يمكن أن يوجد دائماً. فإذن، لو كان عدم الوجود ممكناً في جميع الأشياء، للزم أنه لم يكن حيناً ما شئ. ولو صح ذلك لم يكن الآن شئ، لأن ما هو عدم لا يوجد إلأ من خلال شئ موجود. فإذا لو لم يكن شئ موجود، لإستحال أن يبتدئ شيئ أن يوجد. فلم يكن الآن شئ. وهذا بيِّن البطلان. فإذن ليست جميع الموجودات ممكنة بل لابد أن يكون في الأشياء شئ واجب. والواجب إما واجب لذاته أو لغيره. والتسلسل في الواجبات لغيرها مستحيل. فإذا لابد من إثبات شئ واجب لذاته هو من يسميه الجميع الله".

وخلاصة كلام الأكويني في الفقرة السابقة أن كل المخلوقات ممكنة الوجود والعدم، ولو لم يكن هناك إله موجود بذاته وجوبياً، لإستحال أن توجد تلك الموجودات. إذن فلابد من وجود مدبر لهذا الكون، يكون غايته وقصده. ومن العبث ان نتصور ان كل ذلك النظام صدر من تلقاء ذاته ما لم يكن وراءه كائن واجب الوجود، سواء وصفته الفلاسفة بالمحرك الأول والعلة الفاعلة. أو كما وصفه الوحي بأنه الخالق الأعلى تبارك وتعالى.

يؤمنون المسيحيون، حسبما جاء في الكتاب المقدس، بأن الله واحد وليس سواه، وذلك من خلال العديد من الآيات التي تشير الى وحدانيته مثل قوله:

"لا إله إلأ أنت يا رب"(سي36). "ليس إله إلأ أنت"(حك 12)؛ "الرب إلهنا رب واحد "(تث6)؛ "إن الرب هو الله، وليس آخر"(1مل8). "أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض"(2مل19). "ليس إله آخر إلأ واحداً"(1كو8). "لأن الله واحد" (رو3). "لأن ربا واحداً للجميع" (رو10). "وملك الدهور الذي لا يفنى ولا يرى الإله الحكيم وحده"(1تيمو1).

وصدق القران الكريم على توحيد المسيحيين في أكثر من موضع، فجاء في سورتي البقرة والمائدة:"إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَالذِينَ هادُوا وَالنصَارَى وَالصّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْف عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"(البقرة 62، المائدة 59).

وجاء في سورة العنكبوت: "وَلَا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِل إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِد وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون"(العنكبوت 46)

كما أن أغلب الأسماء الإلهية التي يخلعها الأخوة المسلمون على الله، والمعروفة بالأسماء الحسنى، قد وردت من قبل في الكتاب الذي أُنزل على موسى، وفي الكتب التي أُنزلت على الأنبياء اللآحقين، ومن هذه الأسماء والصفات الربانية نذكر الآتي:

الحي، القيوم(دا6). الدائم (سي18). القدوس، الحق (رؤ3). الأمين، الحافظ العهد(تث7)، المحب، الثابت، الراسخ، المطمئن، الرقيب، القدير (حك7). العالم (سي23).الرحيم،الرؤوف(خر34، نح9). العلي،المالك(تك14)،العزيز (اش33)، الجبار ،المهيب(مز24،تث10)،المعطي(مز146).الفريد(اش40).المصور (اش45)؛ الظاهر (1تي3)؛الأول، والآخر (اش44)،الغافر (مي7)؛الفادي(اش59)،الرحيم(سي48)؛ الديان،العادل(2تي8)،المرهوب،القوي، البار (2مكابين1) ...الخ.

وإذن فالمسيحيون يؤمنون بوحدانية الله وبصفاته. وقد عانوا الكثير في سبيل نشر الوحدانية في أرجاء المسكونة عندما كان الناس يؤلهون عناصر الطبيعة كالبحر والشمس والقمر، الى جانب عبادة البشر والحجر والشجر.

ويعلل المؤرخ أُوسابيوس القيصري سبب الإضطهاد الذي وقع على المسيحيين أنهم "إستقبحوا كل أنواع العبادة الوثنية الشيطانية القائلة بتعدد الآلهة. وجحودها، وإعترفوا بأنه يوجد إله واحد فقط خالق كل الأشياء. وأكرموه برسوم التقوى الحقيقية"[1].

وأما قولنا بالأقانيم فهي الصفات الذاتية الأزلية التي لله الواحد. وهي لا تتنافى مع الوحدانية؛ ولذلك فإننا نفتتح قانون الإيمان بقولنا "بالحقيقة نؤمن بإله واحد" ونختم البسملة بقولنا "إله واحد".

وعن كون صفات الله ليست قدراً زائدا على الذات يقول ابن الراهب:

"وليست صفاته قدراً زائداً على ذاته. فأما الصفات المخلوقة، فليس مفهومها كمفهوم صفات الإله الخالق تجلت قدرته. وهذا يتبين من وجهين: الأول أن

---

1) يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، صـ 69، 70.

صفات المخلوق مستفادة من غيره، وأعراض قابلة للتبدل من حال إلى حال...أما صفات الإله الخالق فليست مستفادة من غيره، ولا هي أعراض قابلة للتبدل من حال إلى حال...ولهذا قيل أن صفاته ثبوتية بمعنى أنها ليست بأجزاء ولا بأعراض".

وتصور المسيحيين للاب والابن والروح القدس، هو تصور روحاني، وخالى من التجسيم والتبعيض. وذلك لأن الوحي إستعمل لغة وألفاظ البشر، وهي ذات دلالات مادية تتعلق بأمورهم. ولكن عندما تستعمل في الإلهيات، لابد أنها تكتسب معاني ودلالات أُخرى لا علاقة لها بالفهم المادي من قريب أو من بعيد- وسوف نناقش ذلك تباعاً.

وعليه فإن الأقانيم، أو الصفات الذاتية، متحققة فيه بطريقة خاصة به وحده. وليس ما يشبهه فيها من جملة ما يدركه الإنسان. وأما ما يقدمه اللآهوتيون من تشبيهات هي للتفسير، ولتقريب الأمر إلى العقل الذي إعتاد الإلتقاء بالطبيعيات من حوله. كتشبيه الأقانيم بالإنسان المؤلف من روح، ونفس، وجسد. ومع ذلك فالفوارق بينهما كبيرة وكثيرة. منها أن الصفات في الإنسان جواهر مختلفة: جسده مادي ترابي كثيف فإني. رآه البعض عرضاً في الإنسان. ومحال أن نقول بوجود أعراض فى ذات الباري. وروح الإنسان جوهر لطيف خالد ومغاير للجسد.

وعن تفرد صفات الله، قال صاحب كتاب نظام التعليم ما نصه:

"إذا قيل: ليس فى الكون كائن آخر هو واحد وثلاثة معاً بهذا المعنى، أجبنا أن هذا صحيح، وأنه لما كان الله فريداً فى الكون فى طبيعته وصفاته، كان غير

بعيد أن يمتاز عن كل ما سواه فى كيفية وجوده كما يمتاز فى صفاته السامية"[1].

وجاء في ذات المصدر ما يجعل إمكانية قبول الصفات الأقنومية أمراً معقولاً، ولو كان يصعب فهمها:

"التثليث فوق عقولنا. والله لم يشأ كشفه لنا. فإن صح رفضه لعدم إمكاننا إدراكه، يلزم رفض غيره من معلنات الله التى إدراكها فوق طاقتنا، نظير كونه تعالى قائماً بنفسه، وأزلياً، وعلة العلل، وغير معلول البتة، وموجوداً فى كل مكان فى وقت واحد. وعالما بكل شئ، وبكل ما يحدث منذ الأزل والى الأبد فى كل وقت. وعدم قبول علمه الزيادة ولا النقصان. فسر التثليث ليس أعظم من أسرار آخر فى الله تعالى".

وعلى ذلك فيؤمن المسيحيون بالصفات الأقنومية، وبغيرها من المعتقدات التي تسلموها من السلف جيلاً بعد جيل. وقد برهن الرسل الكرام على صحة دعوتهم بالآيات الباهرات التي رافقتهم في رحلاتهم التبشيرية منذ ألفي عام خلون. ولنا أن نقبلها، وإن كانت عقولنا تعجز عن فهمها. وعلى قول من قال "إذا كان العقل يُكتَفى به، لما كان للوحي فائدة ولا غناء".

وعلى أقل تقدير فلنقف من الأقانيم موقف العلماء الأفاضل من الصفات الجسمية الخبرية الواردة في القرآن الكريم وفي الآحاديث، مثل الإستواء على العرش، والكشف عن الساق، وغيره. ونقول قولهم: "كل من عند ربنا، آمنا

---

1) نظام التعليم في علم اللآهوت القويم، صـ 214.

بظاهره وصدقنا بباطنه، ووكلنا علمه إلى الله تعالى. ولسنا مكلفين بمعرفة ذلك، إذ ليس ذلك من شرائط الإيمان وأركانه".

والإيمان النظري بالله ليس هو نهاية المطاف بل أوله، لأن الشياطين تؤمن بالله وتقشعر كما جاء على لسان القديس يعقوب الرسول، قوله: "أنت تؤمن أن الله واحد. حسناً تفعل! والشياطين يؤمنون ويقشعرون"(يع2).

وقد كانت الشياطين ملائكة. ولم يمنعهم قربهم من الله ان يتكبروا ويتشيطنوا. والإيمان النظري بالله لا ينفع الشرير إن هو مات في شره دون توبة؛ ولا ينفع الإنسان المتكبر الذي يموت في كبريائه بلا ندمة. ومصير الأشرار والمتكبرين لا يختلف عن مصير الملائكة الذين تكبروا، على الرغم من إيمانهم بالله ومعرفتهم به وقربهم منه.

وأعتقد أن الله في يوم الدين، لا يحاسبنا على عجزنا عن إدراك طبيعته، ولا عن إختلافنا في نسبة صفاته الى ذاته بقدر ما يحاسبنا على أعمالنا: على الشر الذي أتيناه، وعلى الخير الذي منعناه. لذلك يقول الملك للأشرار– وأخشى أن أكون أولهم:

"إذهبوا عني يا ملاعين، الى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته. لأني جُعت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقوني. كنت غريباً فلم تأووني، عرياناً فلم تكسوني، مريضا ومحبوساً فلم تزوروني..الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا"(مت25).

وإذا كان هذا هو مصير المؤمنين بالله الذين يعرضون عن أعمال الخير التي أُمروا بها، فماذا يكون مصير من يعمل أعمال الشيطان، ويتكبر ويعتدي على أخيه الإنسان ؟! وهل يقبل الله صلاة إنسان يفعل ذلك، وهو القائل:

"حين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم. وإن كثرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملانة دماً"(اش1).

إتفق أكثر من عاشوا على كوكب الأرض على وجود خالق للكون، ولكن إختلفت تصوراتهم عنه، وإختلفوا فيما نسبوه له من صفات وأعمال بلغت حد التناقض. كما إختلفوا في تصورهم لذاته ما بين التشبيه التجسيمي، والتنزيه التجريدي، وما بينهما. فهناك من غالى في التشبيه الى حد القول بأنه "جسم، لا كالأجسام، وأنه مركب من لحم ودم، لا كالحوم والدماء. وتجوز عليه المصافحة والمعانقة للمخلصين". وهؤلاء هم المشبهة أو المجسمة وهي فرقة خرجت على معتقد أهل السنة. وإستندت فيما ذهبت إليه على ظاهر ما جاء ببعض الآيات القرآنية وبعض الآحاديث التي يدل ظاهرها على نسبة الجسمية الى الله.

وهناك من غالى في التنزيه الى حد التعطيل ونفي الصفات الذاتية عن الله، وتجريده من الماهية والتعين والجوهر. هو عندهم أشبه بالفكرة المجردة التي لا توجد إلأ في الذهن فقط. مثل العدل والحب والكراهية، وهي معاني بلا كيان، وليس لها وجود خارج النفس. هو عندهم كائن بلا ماهية، أو كائن بلا كينونة – تعالى الله عن تلك التصورات.

وإذا سالت يهودياً عما إذا كان يعتقد ان العُزير إبن الله، لتعجب من سؤالك. فلعل جماعة من اليهود المستعربة قالت به في صدر الاسلام، وإنتهى أمرهم.

ولو سألت مسيحياً عما إذا كان يعتقد بأن الله أنجب المسيح من صاحبة لزاد عجباً. فالقران الكريم لم يقصد كل أهل الكتاب؛ بل طائفة من المبتدعة خرجت عن صحيح اليهودية، واخرى مرقت عن جوهر المسيحية. والدليل على

ذلك أنه أثنى على عموم أهل الكتاب، وعلى إيمانهم وكتبهم كما جاء بسورتي(البقرة 62)، و(العنكبوت 46).

كما أنه لا يوجد في أسفار الكتاب أن عزرا-العزير في لسان العرب- هو ابن الله. فهو بالقطع خروج على التوراة التي قالت فقط ببنوة المؤمنين المجازية لله(تك6:2)؛ ونهت عن الشرك به(خر20)، ودعت الى الوحدانية بصريح القول: "الرب الهنا رب واحد"(تث6).

وحاولت جماعة المريميين التوفيق بين وثنيتها وبين معرفتها السطحية عن المسيحية، وألهت العذراء وقالت بأن الله تزوجها، وانجب منها عيسى. وفيهم قال القران الكريم: "وإِذ قال اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلناسِ اتخِذُونِي وَأُمِيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قال سُبحَانك"(المائدة116).

وخرجت عن الاسلام جماعة وصفهم ابو حاتم الرازي بالغلاة، قال فيهم:

"وقد قالت غلاة هذه الأمة في النبي(ص)، وعن علي كرم الله وجهه، والائمة من بعدهما، أعظم من هذا. فإنهم قالوا أنهم آلهة-لا اله إلأ الله سبحانه- بل كثير منهم إدعوا لسلمان وغيره مثل ذلك. وهذا باب يطول القول به. ومقالات الغلاة مشهورة في هذه الأمة، وفي جميع الأمم في قولهم بالهية البشر"[1].

ولما كان الله غير محدود، ولا يرى بجهة، وقصي عن الأبصار، فقد شاء- ولا يُسأل فيما شاء-أن يتجلى لموسى على طور سيناء؛ وأن يتراءى لأهل الاخرة دون إستعالة، وان يتجسد لاهل الدنيا دون إستحالة، كقول الوحي "عظيم هو سر

1) أبو حاتم الرازي، أعلام النبؤة، صـ 129.

التقوى الله ظهر في الجسد..تراءى لملائكة"(1تي3). "وفي وسط السبع المناير شبه إبن إنسان"(رؤ1).

ومن الأمور العجيبة والغريبة، أنه عندما تطرُق آذاننا عبارات مثل: "إبن النيل"، و"إبن البلد"، و"لم ينبس ببنت شفه"، و"أبنائي الطلاب"، و"تتولد الشحنات الكهربية من كذا وكذا". وغير ذلك من العبارات المماثلة؛ لا يتطرق الى فهمنا أن النيل تزوج النيلة وأنجب منها ولداً؛ ولا أن البلد تزوج البلدة فولدت له البُليدة؛ ولا أن الشفاه حبلت وولدت كلمات؛ ولا أن المعلم إلتقي بأُمهات الطلاب؛ ولا كانت الشحنات الكهربية ثمرة سفاح مصدري الطاقة الموجب والسالب.

أما إذا قال المسيحيون أن المسيح "إبن الله"، إنقلبت موازين المنطق رأساً على عقب، وإنهارت قواعد اللغة وتحطمت أركانها. وعلى الفور ينصرف الذهن الى الزواج والجماع، والإنجاب والدونية، والأخلاط البشرية، مما هو بعيد عن إيمان المسيحيين بُعد السماء عن الأرض. لأنهم يختمون البسملة بقولهم "إله واحد"؛ ولأنهم يفتتحون قانون إيمانهم، بقولهم "بالحقيقة نؤمن بالله واحد"، ويختمونه بقولهم "وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي". وبين الإفتتاحية والختام يُفَصِّلون القول في الأقانيم التي للجوهر الإلهي الواحد.

ويقولون عن لاهوت المسيح: "المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور".

وهي عبارة كافية لضحد الظنون السابقة. فهي تشير الى ولادة روحانية أزلية نورانية، لا علاقة لها، ولا صلة تصلها بالزواج والإنجاب وبالتصورات العقلية والترهات البشرية التي قال بها المرميون قبل خمسة عشر قرناً. هي ولادة أسمى

بما لا يُقاس من ولادة الشعاع من الشمس، والنور من النار، والفكر من العقل؛ فلم تمر لحظة كانت الشمس فيها بغير أشعتها. والشعاع يولد منها ولا ينفصل عنها. وكما يولد الفكر من العقل ويتجسد في الكتب ويسافر الى أقاصي الدنيا، ويظل في العقل لا يفارقه، هكذا مع الفارق الكبير ومع البون الشاسع، يعتقد المسيحيون في نسبة الإبن الى الآب، أو كلمة الله الى ذاته.

وربما يقول قائل لماذا إستعمل الوحي كلمة "إبن"، ولم يستعمل كلمة "مثل" أو غيرها مما يجنب شبهة البنوة التناسلية. وللرد على ذلك أقول إن كلمة "مثل" تشير الى جوهرين وكيانين يشبه أحدهما الآخر. أما كلمة إبن فهي تعني وحدة الطبيعة والجوهر والذات؛ ليس كولادة الإبن البشري من أبيه؛ وإنما كولادة النور من النار، والفكرة من العقل.

ولادة كلمة الله من الله هي ولادة روحية وليست جسدية، ولادة ازلية وليست زمنية، ولادة لا مثيل لها في عالم الفكر والمادة. وهي تخالف كل ما يتصوره العقل. لأنها من خارج حدوده. وكل ما خطر في بالك عنها هي بخلافه. فهي تظل دائماً مجهولة الكيف عندنا لأنها وحيدة وفريدة، وتخص ذات الباري. وذاته فوق تصور عقولنا.

وربما يقول آخر: إذا كانت الإلهيات فوق عقولنا فلماذا أعلنها الله لنا؟

للإجابة أقول: أعلن الله لنا عن بعض صفاته محبة فينا، وقال: "لا أعود أُسميكم عبيداً لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده لكني قد سميتكم أحباء"(يو15). وأيضا لكي يُمَيز المؤمن من غير المؤمن. ولكي يمتاز الإيمان على العقل. فلو كان كل ما يأتي به الوحي معروفاً للعقل فما جدوى الوحي إذن ؟!

وما تراه أنت غير معقول وغير مقبول، يراه المؤمنون به غاية في المعقولية والقبول، وذلك بحاسة أُخرى هي نعمة الإيمان. ولهذا فعندما سأل السيد المسيح تلاميذه عن إعتقادهم فيه، قال له بطرس: "أنت المسيح إبن الله الحي".

فقال له السيد: "إن لحماً ودماً(اي إنسان) لم يُعلن لك بل أبي الذي في السموات"(مت 16).

وقال القديس بولس: "ليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلأ بالروح القدس" (1كو 12).

فهذا ما يميز المؤمن عن غير المؤمن. والدليل على ذلك أنك ترى المسيحيين يتعزون بإيمانهم هذا، ويفتخرون به؛ في حين يزدريه غير المؤمن، حتى أنه إذا ما قرأ أو سمع عبارة "إبن الله"، إنفجرت ينابيع الأدرينالين في جمجمته، لأنه لا يعلم من البنوة غير ثمرة المباضعة البشرية، ولا من الأقانيم غير التعددية. وهذا لا يقبل به مؤمن ولا عاقل. فضلاً عن أنه يناقض عقائد المسيحيين جملة وتفصلاً.

وفي شرحه لعقيدة الثالوث، روى القمص سرجيوس عن الصفي إبن العسال ما يلي:

"لقد سئل الشيخ الصفي اسحاق بن العسال وقيل له: إذا كان إعتقادكم في الباري أنه واحد، فما يحملكم على أن تسموه ثلاثة أقانيم، وأن تسموا بعضها أباً، وبعضها إبناً، وبعضها روحاً، فيتوهم السامع أنكم تعتقدون في ثلاثة آلهة؛ وأن الله ثلاثة أشخاص أو ثلاثة أجزاء؛ أو يظن من لا يَعرف إعتقادكم أنكم تقولون

أن له إبناً، وأنكم تريدون بذلك المباضعة والتناسل فتطرقون على أنفسكم تهمة أنتم بريئون منها.

فأجاب قائلاً: وأنتم، لما كان إعتقادكم أن الله تعالى غير ذي جسم، وغير ذي جوارح وأعضاء، وغير محصور في مكان، فما الذي حملكم على أن تقولوا أن له عيناً يُبصر بها، ويدين يبسطهما، وساقين يكشفهما، ووجهاً يوليه الى كل الجهات؛ وأنه يأتي في ظل الغمام، فيظن من لا يعرف إعتقادكم أنكم تجسمون الباري، ويتهمكم السامع بما أنتم بريئون منه؟

فإن قلتم: حَمَلَنا على ذلك أنه تضمنه كتابنا العزيز، والمراد به غير ظاهر اللفظ؛ وكل من يحمله على ظاهره فهو كافر.

قلنا: وكذلك العلة في قولنا أن الله ثلاثة أقانيم هي أن الأنجيل المقدس نطق بذلك. وكل من يعتقد من النصارى أن الأقانيم المذكورة ثلاثة آلهة مختلفة أو متفقة..أو غير ذلك مما يقتضي التشبيه والتجزئ..أو من إعتقد منهم أن الإبن الكلمة المتحد بالإنسان له بنوة من تناسل وجماع..أو من بعض المخلوقين، فهو كافر".

ولا يفوتنا هنا أن نؤكد على أنه لا كلمة "إبن"، ولا كلمة "لوغوس"، ولا غيرهما من الكلمات، تعبر على ذات الله وصفاته حق تعبير. فلا ننسى أن الأنبياء والرسل صاغوا الوحي الذي تلقوا معانيه في لغة بشرية. وهي من نتاج العقل الإنساني، وكل ألفاظها محدودة المعني بحدود علم الإنسان الطبيعي والمتناهي في الصغر والتواضع مقارنة بخالقه تبارك وتعالى.

أخذ المؤرخون والرواة العرب والمستعربون، الكثير من أخبار وأقوال الكتاب المقدس؛ وجاءت أخبارهم موافقة في الكثير من حيث ذكرهم للأشخاص والأحداث وفق الترتيب الذي جاء بالتوراة. فإبتدأوا بخلق السموات والأرض، ثم خلق آدم، ثم نوح والطوفان، ثم ذكروا قصص إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ويوسف، وموسى، والقضاة الذين تولوا أمر بني إسرائيل بعد يشوع. ثم أفاضوا في الكلام عن شاول(طالوت)، وداود، وسليمان الذي قالوا فيه ما جاء وما لم يجئ في أخبار ملوك بني اسرائيل، والذين حظوا هم أيضاً بقسط كبير في كتب الاخباريين؛ فذكروا يربعام ورحبعام ومن تعاقبوا على عرش كل منهما حتى زوال مملكة الأول بيد الأشوريين ومملكة الثاني بيد البابليين.

وما إستقاه المؤرخون(الطبري وإبن الأثير وإبن كثير والمسعودي وغيرهم) ما إستقوه من أخبار العهدين إنما يعزز من أهمية الكتاب المقدس كمصدر تاريخي هام، كما أن الإعتماد عليه إنما يضع أمامنا الحقائق الكثيرة التي أخطأتها أقلامهم، ويصحح السطور المعوجة في صحفهم، وذلك فيما يتعلق بالأخبار التي إنفرد بها كتبة الأسفار بدءاً من حادثة الخلق والتكوين، وأخبار الأسلاف والأولين، منذ آدم وحتى مولد المسيح مروراً بالأخيار والنبيين. فذكروا نوح وأولاده الذين يعدون اقطاب الشجرة البشرية، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وبقية الذرية؛ ولكنهم حرفوا فيها، فحذفوا منها وأضافوا إليها ما لا يوافق العقل وما لم يأتي به الصحيح من النقل. وفي ذلك يقول الدكتور جواد علي في المُفَصَّل:

"لأن أهل الأخبار لم يكونوا يسيرون على قواعد ثابتة وأنظمة معينة في أخذ الأنساب، ولهذا نراهم يقعون في الغلط، وذلك يدل على أن علمهم بالأمور الواردة في التوراة لم يكن علماً راسخاً، وأن علم محدثيهم من أهل الكتاب لم يكن راسخاً أيضاً ولم يكن مستمداً من التوراة رأساً، بل من السماع والرواية في بعض الأحايين. وإلا لما وقعوا في أغلاط شنيعة. وما احتاجوا إلى الوضع والكذب، كالذي نراه من كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما"[1].

ومن بين تلك الإختلافات الكثيرة ما أشار إليه أبو الفدا في مختصره من أن الله "خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك.. وتركه أربعين ليلة، وقيل: أربعين سنة ملقى بغير روح". بينما إكتفى موسى النبي بالقول بأن الرب جبل آدم من تراب الأرض ونفخ فيه نسمة حياة:

"وجبل الرب الاله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية"(تك2).

وإختلفوا في عمر إبراهيم بين مئتي سنة ومئة وخمس وسبعين سنة، كما ذكر الطبري[2] . وإختلفوا في عمر إسحاق ما بين مئة وستين سنة كما ذكر ابن الأثير في (الكامل)، ومائة وخمس وثمانين سنة كما أخبرنا المسعودي في مروج الذهب[3].

---

1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، صـ 171.

2) الطبري، تاريخ الامم والرسل والملوك، جـ1، صـ 219.

3) المسعودي، مروج الذهب، صـ 34..

وإختلفوا في ثمن يوسف بين عشرين وأربعين درهماً كما قال أبو الفداء وآخرون. ووضعوا لملك مصر الذي عاصر يوسف إسماً غير مصري فقال الطبري: "قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير إبن السلواس بن قاران بن عمرو"[1].

وأطال المسعودي- في مروج الذهب- في عمر أخيه الوليد حتى جعله معاصراً لموسى النبي مع أن الفارق الزمني بينهما يتجاوز قرنين. فضلاً عن أن ما ذكروه من أسماء لم يرد لا في التوراة، ولا في أثبات الفراعين، ولا عند القدماء من المؤرخين. فلم ترد لا في ثبت سقارة، ولا في ثبت الكرنك، ولا في ثبت أبيدوس، ولا في بردية تورين. ولم تذكر في تاريخ هيرودوت أو ديودور أو بلوتارخوس، أو غيرهم.

وإختلفوا في مدة حمل إمرأة زكريا ما بين ساعة، وثلاث ساعات. ومن الأشهر، ستة وثمانية وتسعة، كما ذكر إبن الأثير الذي أورد إختلافهم أيضاً في سنة ميلاد المعمدان، فقالوا "قبل المسيح بثلاث سنين، وقيل بستّة أشهر". وأن العذراء "حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، وقيل: عشرون".

وإمتد اللغط والتأليف الى تاريخ العرب أنفسهم، ووقعوا في مآخذ عديدة، نذكر منها ما أورده أبو الفداء في المختصر عن إختلافهم حول ثقيف، فهو من قيس وهو من إياد وهو من ثمود. والبون شاسع بين هذه القبائل. وإختلفوا

---

1) الطبري، تاريخ الامم والرسل والملوك، جـ1، صـ 255.

حول"عيلان إبن مُضر". فهو عندهم إبن لـ مضر، وهو حفيد مُضر، وهو فرس مضر، وهو كلب مضر! [1].

فإذا بلغ الخلاف حول نسبة (عيلان) الى (مضر)، وهو من أقطاب القبائل، فيما إذا كان هو إبنه أو حفيده أو كلبه أو حصانه، فكان من الطبيعي ألا يصيبوا في نقل أخبار غيرهم.

ولهذا لا نستغرب ما أحدثوه من تحريف فيما نقلوه عن أهل الكتاب من أخبار وأحداث وأشخاص ذات صلة بالكتاب المقدس.

فالتحريف الذي يطنطن به بعض المعاصرين، هو ذاك الذي أحدثه الإخباريون في كتبهم ولم يتعداها. لأن القرآن الكريم قد شهد في القرن السابع الميلادي لصحة الكتاب:

"الذِينَ آتيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يتْلُونَهُ حَق تِلَاوتِه أُولَئِك يُؤْمنُونَ بِه ومنْ يكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون"(البقرة 121).

وكان الكتاب منتشراً في أرجاء المسكونة، ويستحيل الإتفاق على جمعه وتحريفه بعد ذلك. ولماذا يحرفونه؟ كما أنه من غير المعقول أن الله يوحي بأربعة كتب سماوية–كما يعتقد القائلون بالتحريف–هي التوراة والزابور والإنجيل والقرآن، وأنه يترك ثلاثة منها عرضة لعبث العابثين، على الرغم من أن بعضها لم يُنقش على ألواح فولاذية، وبعضها الآخر على ألواح فخارية، ولكن سطرت جميعها في رقاع جلدية، ثم نُسخت في صحف ورقية. ثم إنتقلت من أيدي الأولين الى أيدي خلفائهم بالطرق المعهودة. والجميع في النهاية بشر، والله هو

---

1) المختصر في أخبار البشر، جـ1، صـ 134.

الذي يحفظ الكل: كلامه والبشر الذين يحملونه. وحيث أنه قادر على كل شئ فيكون قادراً بالضرورة على حفظ كلامه.

ثم راح القائلون بالتحريف، يتشبثون بكتاب لمؤلف إيطالي يُدعي فرامارينوا، والمعروف بإسم إنجيل برنابا، والقديس برنابا منه براء، فينسبونه الى الوحي، على الرغم مما به من أخطاء علمية وتاريخية وجغرافية، ونقائص أخلاقية تتعارض مع القيم والمبادئ الإنسانية. وتتعارض مع الكتاب المقدس كما تتعارض مع القرآن الكريم.

فأيهما أكثر معقولية أن يؤلف شخص ما، مثل فرامارينوا، كتاباً وينسبه الى الوحي، أم يتم جمع كل الكتب الموحى بها من شتى أنحاء العالم ليتم تحريفها؟! وما المنفعة التي يجنيها المحرفون من التحريف؟ من الممكن وقوع الإختلاف في التفسير، ولكن من غير الممكن تحريف النص. ومن كان يجرؤ على تحريفه واليهود كانوا يكفرون من يأتي بتفسير يخالف تفسيرهم. فكيف يتهاونون مع من يحرف النص؟! فضلاً عن أنهم كانوا يتبعون إجراءات صارمة جداً عند النسخ. كما أن السيد المسيح أكد على صحة التوراة بقوله:

"الحق أقول لكم الى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل"(مت5).

ولنفترض جدلاً أن الكتاب المقدس قد حُرِّف، وهو لم يحدث، ألا تكفي الوصايا العشر، وعظة السيد المسيح على الجبل وغيرها من كتب الحواريين وأسفار النبيين، هادياً يهدي الناس الى الحق، ونبراساً ينير لهم الطريق الى الملكوت ؟!

لقد وصلت رسالة السيد المسيح الى عشرات إن لم يكن مئات الألوف من الناس شفاها على يد الحواريين، قبل أن يكتبوا حرفاً واحداً من الإنجيل. وأن الإيمان بالمسيحية، رسالة الغفران والمحبة والقداسة، قد حُفر في الصدور، وسُطر في العقول، قبل أن يدون في الرقاع ويبلغ المعمور. فإن قُدِّرَ للكتاب أن يتغير أو يذهب، فلن يزول الإيمان من صدور المؤمنين، ولن يتلاشى الحق من عقولهم.

والوحي لا يخرج عن ثلاثة إحتمالات: إما أن يكون واجباً التحريف، أو ممكناً التحريف، أو معصوماً عن التحريف. فإن قلتم بتحريف كتاب من كتب الوحي بطل قولكم بعصمة الوحي. ثم كيف تقولون بعصمة حملة الوحي من الأنبياء بينما تسومون الوحي نفسه بوصمة التحريف!

فلنترك إذن ذلك الإدعاء الجاني، ونكف عن تزييف الحقائق التي باتت معروفةً للقاصي والداني !

بــالاقنـــــاع !

تعددت المذاهب والمِلَل؛ واختلف أتباع الدين الواحد فيما بينهم، وألفوا شيعاً وفرقاً ومذاهباً، نشأت عن إختلافهم في تناول النص الواحد. وليس من المنطق أن تكون كل الآراء والمذاهب صحيحة، لما بينها من تناقض؛ ولما بين بعضها وبين العقل من تعارض. فالعقل من الله، والوحي من الله، ولا ينبغي أن تتناقض الإلهيات: لا ما هو من صُنعه، ولا ما هو من وحييه. فالعقل ليس صنيعة الشيطان. وليس هو الحذاء الذي يخلعه الإنسان قبل الولوج الى بيت العبادة، كما وصفه أحد الفُهماء. وليس هو الحمار الذي يتركه الراكب على باب دوار العمدة كما وصفه آخر. بل إنه أسمى من ذلك بكثير. وقد أمتدح السيد المسيح شاباً لأنه "أجاب بعقل"(مر12). فالإنسان كائن حي عاقل. وبدون العقل لا يكون الإنسان إنساناً، وإذا فقد عقله، فقل عنه ما شئت. فهو الوسيلة الوحيدة لتلقي الوحي. وهو مصدر التكليف. وبدونه لا يُثاب الإنسان ولا يُعاب.

ولهذا فإنه ليس من العقل ولا من العدل أن يفرض الناس الغيبيات على غيرهم بالتهديد والوعيد: إما أن يقبلوا ملتهم؛ وإما أن يموتوا، أو أن يعيشوا تحت وطأتهم! وإنما تُنشر الدعوة بالإقناع. وهو المبدأ الذي تعامل الله به مع الناس منذ بدء الخليقة، وحتى الآن، وإلى نهاية العالم. فعندما دعا موسى، قدم له برهاناً يثبت الهيته، وذلك من خلال تجليه له بطريقة غير مألوفة، وخارقة لناموس الطبيعة: نار تشتعل في شجرة، والشجرة لا تحترق. ولما إقتنع موسى بأمر الدعوة الإلهية، وقبل الرسالة السماوية، لم يكتفي بقناعته لإقناع الرعية. لأن الآخرين لم يختبروا الوحي مثله، ولم يروا ما رأت عيناه، ولم يسمعوا ما

سمعت أُذناه. ولذلك خاطب الله قائلاً: "لا يصدقونني، ولا يسمعون لقولي؛ بل يقولون: لم يظهر لك الرب"(خر4). وفي قوله هذا ربما نلمح شيئا من الشك يتسلل الى كليم الله. ومع ذلك لم ينتهره الخالق، لأنه يعلم طبيعة جبلته، وحدود العقل الذي خلقه. وموسى يطلب شيئاً معقولاً، إنه بحاجة إلى برهان يُقنع به الناس، مثلما إقتنع هو من خلال تجربة حسية ملموسة. وعندئذ قدم له الرب برهاناً عملياً واضحاً ومباشراً، وهو التأثير في ناموس الطبيعة من خلال التغير الذي أحدثه بقدرته تعالى في يد كليمه، التي صارت بيضاء. وكذلك تحويل العصا الجامدة الى حية قانتة. وقال له إفعل ذلك أمام أخيك وقدام شعبك، وأمام فرعون وشعبه.. ومن هنا يكون التكليف.

وعلى ذات المنوال، قدم السيد المسيح للناس البراهين الدالة على صدق دعوته من خلال المعجزات الباهرة، والتعاليم السامية الطاهرة، والقدوة الحسنة البادرة. ولذلك فمن رأى بعينيه وسمع بأُذنيه فلا عذر له، لذلك قال عمن رفضوه "لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري، لم تكن لهم خطية"(يو15). ومع ذلك لم يعاقبهم في الدنيا، بل ترك باب التوبة مفتوحاً أمامهم على مصراعيه، والى النفس الأخير.

وقبل إرساله للتلاميذ، لم يتركهم على شاهدوه، وما سمعوه وآمنوا هم به وصدقوه؛ بل إنه أمدهم بما يُقنع غير المؤمنين بصدق دعوتهم، فقال لهم: "إشفوا مرضى، طهروا برصاً، أقيموا موتى، أخرجوا شياطين. مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا"(مت10). فبعثهم لكي يهبوا الناس الخيرات، ويمنحوهم البركات، لا ليهلكوا أرواحهم، ولا ليسلبوهم أموالهم، كما يفعل الغزاة والطامعون.

وكان لما رجعوا من الكرازة فرحين وقالوا له: "يا رب حتى الشياطين تخضع لنا بإسمك"، أنه عرفهم أن عمل المعجزات ليس الهدف؛ بل إنه مجرد وسيلة لقبول الإيمان؛ وأما الهدف الحقيقي فهو خلاص النفوس، والحظوة بملكوت السموات. ولذلك قال لهم: "لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم، بل إفرحوا بالحري ان اسماءكم كُتبت في السماوات"(لو10).

ولم تنتهي المسألة عند قبول الإيمان، وإنما تبدأ مرحلة أُخرى هي مرحلة الجهاد ضد الشيطان وضد النفس. ولذلك كان من الضروري إمدادهم بالأسلحة اللآزمة للحروب الروحية. ولم يكن سيف بطرس أهلاً لها. ولذلك طلب منه أن يرده الى غمده، عندما إستله للدفاع عنه.

كان التلاميذ بحاجة الى أسلحة غير تقليدية، ليست كتلك التي إستعملتها جيوش العالم قديمه وحديثه لبث الرعب في نفوس الناس وإجبارهم على الخضوع والإستسلام، وإلا فقتل الرجال، وسلب الأموال، وإسترقاق النساء والعيال. وإنما كانت حرب التلاميذ ضد الشيطان، وما زرعه من شرور داخل الإنسان، فجردته من إنسانيته.

لم يكن الإنسان عدوهم بل كان الضحية التي يتعين إنقاذه من شهواته، وأطماعه، وظلمه، حتى تقسى قلبه، وتحولت حياته الى جحيم بين سوط اللذة وسطوة الموت. ولهذا لم يأت السيد بما يجئ به الناس، ولم يجيش أتباعه لقهرهم؛ وإنما بَعثهم بالحب والسلام كما يقول القديس بولس: "ما أجمل أقدام المبشرين بالسلام، المبشرين بالخيرات"(رو10). جاءوا ليخلصوهم من الخطية، وينقذوهم من الآثام التي دخلت اليهم وتأصلت في نفوسهم.

في الحروب التقليدية يقتل الإنسان أخاه الإنسان ظلماً وعدواناً؛ أما رسالة التلاميذ فكانت لنشر السلام، ولتحقيق المصالحة بين الناس وبعضهم، وبينهم وبين الله. ولم يكن السيف أهلاً لذلك، لأنه لم يصنع سلاماً، ولم يقم عدلاً، ولم يوحد شعباً، ولم ينشر بين الناس إلأ العداء والبغضاء، ولم يجر غير الحروب وسفك الدماء.

لقد تأيد الحواريون بالنعمة الالهية، وبالأسلحة الروحية، وبالبراهين العقلية والمادية. أما أسلحتهم الروحية فقد أشار إليها القديس بولس في قوله للمؤمنين: "إن مصارعتنا ليست مع دم.. فإثبتوا ممنطقين أحقاءكم بالحق، ولابسين درع البر.. حاملين فوق الكل ترس الإيمان الذي به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة. وخذوا خوذة الخلاص وسيف الروح الذي هو كلمة الله"(اف6). "لأن كلمة الله حية وفعالة، وأمضى من كل سيف ذي حدين، وخارقة الى مفرق النفس والروح..ومميزة أفكار القلب ونياته"(عب4). تلك هي أسلحة المؤمنين الروحية التي تقهر الشياطين، وتهدي الأشرار والظالمين.

وظهرت البراهين العقلية بأجلى بيان في خطاب الوحي على لسان المبشيرين للشعوب نزولاً على طريقة تفكيرهم. فخاطب بولس أهل الفلسفة بالحجج البينات. وتحدث متى الى اليهود ابتداءاً من إتمام النبؤات؛ وقدم مرقس المسيح للرومان أنطلاقاً من سلطانه في صنع الآيات.

وأما البراهين المادية فلم تعتمد على التسلط على رقاب الناس بالسلاح، لأن الأسلحة تستعمل لإرهاب وقتل وإيذاء وتعذيب الأصحاء؛ أما أدوات الرسل فكانت لبعث الموتى، ولإبراء المرضى، ولتفتيح عيون الأكفاء. فلم يكن هدفهم أن

يقتلوا البعض فيخاف ويستسلم الباقون، بل أن يقيموا الأموات، ويشفوا الأمراض فيؤمن المبصرون.

وقد أنتهم النعمة السمائية عن أي شئ، ونهاهم المغني عن الإهتمام بأمور الجسد وضروريات الحياة، قائلا لهم:

"لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم. ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا.. وحين تدخلون البيت سلموا عليه. فإن كان البيت مستحقاً فليأت سلامكم عليه.. ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم، فاخرجوا خارجاً من ذلك البيت أو من تلك المدينة، وأُنفضوا غبار أرجلكم.. ها أنا أُرسلكم كغنم في وسط ذئاب.. فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون لأنكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به..ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد؛ ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها.."(مت10).

وعلى الرغم من فقرهم المادي، وضعفهم الظاهري، فقد نشروا الرسالة للعالم وهم أفراد قلائل. وهذا في حد ذاته دليل الهية دعوتهم. ولم يستعينوا عليها بالعنف والسفسطة والخطب الرنانة والتعبئة النفسية القائمة على الترغيب والترهيب. ولكن الله أعانهم عليها بسمو الكلمات، وبعظيم الآيات؛ حتى أن ثلاثة الآف إنسان آمنوا من خلال عظة واحدة ألقاها القديس بطرس(اع2).

ولم يدب الضعف في جسد الكنيسة إلأ عندما قرن ملوك أوربا الصليب بالسيف وبالمجد الدنيوي، فباعوا السماء بالدنيا. وأبدلوا مجد الله بمجد العالم. فجعلوا الرعية تنقم عليهم وعلى الكنيسة ورب الكنيسة. ثم تدارك رجال الكنيسة

الاتقياء الأخطاء؛ ولكن بعد فوات الأوان، فقد سرى الإلحاد في ربوع أُوريا سريان النار في الهشيم.

وفي الآونة الأخيرة دعا فضيلة الشيح الحويني الناس الى الجهاد على طريقته ومنهجه من خلال الغزو والعدوان ونهب الاموال وسبي الشحوطة والنسوان–على حد قوله– وذلك عنده هو الحل الأمثل لحل المشاكل الإقتصادية ولزيادة عدد المسلمين.

وتعقيباً على دعوته أقول: إن رسالة الله للإنسان ليست نظرية سياسية، ولا هي تعبئة قتالية؛ وإنما هي رسالة خير لجميع الناس، رسالة سلام. لأن الله القدوس والمغني والقادر على كل شئ لا يعجز الوسيلة الحسنة لإطعام عبيده على شرط أن يَعملوا، ويُعملوا عقولهم، وينبذوا عن أنفسهم الجشع والطمع فيما للآخر وإشاعة الكراهية والإرهاب بين الناس. وأما عن الدعوة الله، فلابد أن تكون بالحسنى، والله قادر على تزويد أدعيائه بالوسائل التي لا تتنافى مع عدله ورحمته وقدرته وقداسته. ومن كان قادراً على التبليغ بالحسنى فليبلغ، ومن كان أهلاً للتبشير بالسلام والخير فليُبشِّر. وإلاَّ، فليدع الأمر، ويكفي الرقاب سيفه، والصدور رمحه، والأجساد نسفه، والسبايا وطأه، والأطفال ظلمه، والأرض شره. لأن طريق الدين هو الدعاة والمبشرين وليس الفرسان المدججين، طريقه الحجة والإقناع، وليس الغزو والإرتباع، طريقه السلام والإخاء وليس البغضة والعداء.

ولن تنصلح أحوال الناس في المجتمعات الرديكالية، ولن يختفي منها الإرهاب والتطرف إلأ عندما يراعي المتحدثون بإسم الله الفطرة الإنسانية، ويدركوا المقاصد الإلهية الحقة. ويتعلم الإنسان أن يُخرج أولا الطين الذي يطمس عينيه، لكي

يبصر القذى الذي في عين أخيه؛ وأن يطهر نفسه من الأوزار بدلا من الإنشغال بالأتربة العالقة في هدب أخيه الإنسان.

على الداعين لله أن يعلموا الناس أن يعاملوا الآخرين بما يحبوا أن يعاملوهم، وألا يفعلوا بهم ما لا يقبلوه على أنفسهم. ولو أنهم إلتزموا ذلك، لأضحى البشر كملائكة الله في السماء. ولما غُزيت الأوطان، ولما أحتُلت البلدان، ولما تخضبت الأرض بدماء الإنسان والحيوان؛ ولما هُدمت الدور، ولما هُتكت الستور، ولما تجندلت أبدان البشر في الطرقات، ولما سُبيت العذارى والمحصنات.



وضع الله للكون ناموساً ثابتاً يضمن له البقاء ويبعث فيه الحركة والنماء. وميز الإنسان بالعقل والروح والخلود والبقاء. وسلطه على جميع الكائنات: الحيوانات والطيور والجمادات.

وتعاون الناس فيما بينهم على بناء صرح الحضارة الإنسانية، ولكنهم فشلوا في الجوانب الأخلاقية والروحية. وراحوا يتقاتلون فيما بينهم كما الحيوانات في الغابة: القوي منهم يقتل الضعيف ويغتصب ماله وأرضه وعرضه. ولهذا كان الخالق يفتقد خليقته برسالة تثنيهم عن الشر والضلال وتدعوهم الى الإيمان والخير والكمال.

ولم يكن الهدف من رسالة الأنبياء هو إمداد الناس بالمعارف والعلوم الدنيوية؛ وإنما كان الهدف منها هو تهذيب نفوسهم وتقويم سلوكهم وترسيخ الإيمان في صدورهم، وحثهم على الإعراض عن الشر، والسير في طريق الخير. ولهذا لم يُعَلِّمْ الأنبياء الناسَ مبادئ الحساب والهندسة، ولم يعطوهم دروساً في الفلك والطبيعيات. لأن هذه العلوم هي من مهام العقل، وليست من أولويات الوحي. وليست الوسيلة المثلى لحل المشاكل الأخلاقية ولا لإصلاح التدهور الروحي الذي أصاب البشرية. ولكنها ساهمت في الإنجاز الحضاري لها. فخطى قدماء المصريين والبابليين والإغريق خطى كبيرة في علوم الفلك والطب والهندسة. ولا تزال عملية التحنيط وكيفية بناء الأهرامات تحير العلماء والبسطاء الى وقتنا هذا. ناهيك عن تقدم الإغريق العلمي والفلسفي: فقال ديموقريطس بأن إختلاف

الأجسام يرجع الى إختلاف الأتوموس(الذرات)، وكان يراد بها الجزيئات، وهي أصغر جزء من المادة يمكن رؤيته بالعين المجردة. ولكن بعد إكتشاف الأتوم الذي لا يُرى بالعين المجردة، أُطلق عليه ذرة. كما وضع جالينوس وأبقراط مبادئ الطب؛ وأرسى فيثاغورس واقليدس وارشيميدس دعائم الهندسة والرياضيات. وأنبأ طاليس بكسوف الشمس الذي حدث عام 585 قبل الميلاد.

وبفضل الكسندر فليمنج، أمكن تخفيف الآم الجروح والأمراض عن مليارات الناس. وأضاء توماس إديسون بمصباحه حياة البشرية. وهلم جرا....

فهل كان أولئك العلماء أنبياء؟! كلا. إذن فليس من الصواب أن نخلط بين رسالة الأنبياء السماوية، وبين رسالة العلماء العقلية. وكلتاهما لخير الإنسان. ما جادت به قرائح العلماء وما جاءنا به الأنبياء. لأن جميعه من الله لخير البشرية؛ ما هو من نتاج العقل، الذي هو صنيعة الله، وما هو من الوحي، الذي هو رسالته. فهو الذي أوحى للأنبياء، وهو الذي ألهم عقول العلماء، تبارك إسمه وتعالى قدره.

وإذا كان الناس قد أساءوا إستعمال العلم، فليس العيب في العلم ولا في العلماء بل فيمن إستعملوه في الشر، فاستغل السياسيون العلوم في صنع الاسلحة الفتاكة ليس فقط للدفاع وإنما للإعتداء. وكما أن الناس أساءوا إستعمال العلم. فإنهم كذلك أساءوا إستغلال الدين، وكم من رؤوس قُطعت، وكم من نساء سبيت، وكم من أموال نهبت، وكم من دور هُدمت، وكم من أطفال شردت وبيعت في أسواق النخاسة، وكل ذلك جرى بإسم الدين، وبضمير مستريح !

وعلى الرغم من إختلاف الوحي عن العلم، إلأ أنه قد وردت في ثنايا كتبه تصريحات عن حقائق كونية وطبيعية دقيقة كان بعضها معروفاً ومشهود، وبعضها الآخر لم يُكْشَف عنه النقاب قبل توالي القرون وإنصرام العهود. وكان الغرض من ذكرها ليس لتباري الخالق أمام المخلوق، وإنما لتذكير الإنسان بقدرة الله، التي تجلت في الكون بغير حدود. كما يقول الرائي: "عظيمة وعجيبة هي أعمالك أيها الرب الإله القادر على كل شيء"(رؤ15).

وجاء بفاتحة سفر التكوين أن الأرض أنبتت عشباً ثم بقلاً ثم شجراً. وقد جاء ذلك موافقاً للعلم الذي يقول بأن الأرض في مهدها كانت كتلة نارية وبدأت تبرد رويداً رويداً، فسمحت برودة قشرتها لنمو العشب أولاً، ثم البقل، واخيراً الشجر الأكثر عمقاً.

ويقول العلم أيضاً بأن عملية البرودة هذه قد صاحبتها عملية بخر وتكاثف وهطول للمياه التي تمجعت، وتسبب إزدياد ضغطها على اليابس الى ظهور البحار والمحيطات وإنفصال وتباعد القارات. وأشار الوحي الى ذلك بقوله: "وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك..". وكانت مصادر المياه قد إحتلت مساحة كبيرة في أساطير الأولين وفي معتقدات المتأخرين، فنسب الأولون كل مصدر منها الى رب يرعاها: واحد للبحر، وآخر للنهر، وثالث للسحب، ورابع للمطر، وخامس للنبع. ولذلك فقد جرت على ألسنة الأنبياء آيات كثيرة تنسب ذلك الى الخالق وحده، فقال داود النبي: "الكاسي السماوات سحاباً، المهيئ للأرض مطراً، المنبت الجبال عشباً"(مز147). "المُصعدُ السحاب من أقاصي الأرض، الصانع بروقاً للمطر المخرج الريح من

خزائنه" (مز135). وقال أيوب الصديق: "من يحصي الغيوم بالحكمة، ومن يسكب أزقاق السماوات"(اي38).

وتحدث سليمان عن دورة المياه في الطبيعة قائلاً: "كل الأنهار تجري الى البحر. والبحر ليس بملان. الى المكان الذي جرت منه الأنهار، الى هناك تذهب راجعة"(جا1).

وربما كانت هذه الظاهرة معروفة عند حكماء المصريين والبابليين وغيرهم؛ ولكن، كما قلت فإن الغرض من ذكر الوحي لها هو إظهار عظمة الخالق في خلقه.

وقدم الوحي وصفاً دقيقاً للأرض كونها كرة معلقة في الفضاء، فقال إشعياء النبي:"الجالس على كرة الأرض وسكانها كالجندب"(اش40). وقال أيوب الصديق:"يمد الشمال على الخلاء، ويعلق الأرض على لا شيء"(اي26).

وفي ثنايا مناجاته لله ملتمساً الرحمة من لدن العلي، قدم أيوب البار وصفاً صحيحا لمراحل تكون الجنين في رحم الأم، وذلك بقوله:

"ألم تصبني كاللبن وخثرتني كالجبن. كسوتني جلداً ولحما فنسجتني بعظام وعصب. منحتني حياة ورحمة وحفظت عنايتك روحي"(اي10). فنسب الصديق الى الله الكيفية المحكمة التي جبل الإنسان عليها راجياً إياه أن يُعيد جسده صحيحاً كما كان. وقد جاء وصفه مطابقاً للواقع العلمي فذكر الجلد واللحم قبل العظام والعصب اللذان يُنسجان من اللحم.

وقول الصديق هذا يذكرنا بكلام الوحي على لسان حزقيال النبي. وكان حزقيال قد يئس من توبة بني اسرائيل ومن رجوعهم الى الله؛ فأراد الله أن يلقنه درساً

يثنيه عن الشك في قدرة الله الذي يحي العظام وهي رميم. ومن ثم فقد إقتاده الروح الى بقعة بها عظام لجنود قد سقطوا صرعى في إحدى المعارك. وقال له تنبأ على هذه العظام وقل لها:

"هكذا قال السيد الرب لهذه العظام هاأنذا أُدخل فيكم روحاً فتحيون. وأضع عليكم عصباً وأُكسيكم لحماً وأبسط عليكم جلداً وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أني أنا الرب"(حز37).

هنا نرى أن العظام موجودة بالفعل وينقصها اللحم والعصب والجلد وعودة الروح اليها. ففي الشاهد الأول تحدث أيوب عن الخلق، وهنا تحدث حزقيال النبي عن البعث، وفي كلا الشاهدين تجلت القدرة الإلهية لا المباراة العلمية، فبرأ جسد أيوب، ونهضت عظام الجنود؛ ذلك إعجاز حقيقي إنفرد به الوحي على أيدي الأنبياء.

وكما ذكرت آنفاً فإن بعض هذه الحقائق التي أشاروا إليها كان معروفاً، وبعضها الآخر لم يكن يجول بخلد أحد الى أن كَشف عنها النقابَ علماءُ الغرب في عصر النهضة والعصر الحديث، وذلك بمساعدة وسائل ذات تقنية فائقة أمكن من خلالها إكتشاف المجرات، وتفتيت الذرات والتنقيب في باطن الأرض وفي مجاهل القارات، والغوص في أعماق البحار وسبر أغوار المحيطات، وإحداث الطفرات الوراثية من خلال التحكم بالجينات. وقد فعلوا ذلك ولم يكونوا أنبياءً، ولا تلقوا رسالات.

وإعلان الوحي عن بعض هذه الحقائق كان غرضه الوحيد هو تمجيد الخالق الذي تجلت قدرته في خليقته. كما تجلت في كتب الأنبياء أسمى درجات

الإعجاز ليس فقط في وصف قوانين الطبيعة بل في التأثير فيها كما في شق البحر على يد موسى النبي؛ وإبراء الأمراض ألمستعصية كشفاء الأبرص، وإعادة البصر للأكمه، وإخراج الشياطين، وشفاء المجانين وإنهاض المقعدين، والإنباء بالغيب وإقامة المقبورين.

ومن أسمى مظاهر الإعجاز في الإنجيل الشريف هو تأثيره في نفوس المطالعين لآياته. فبفضل تعاليمه السامية، تغيرت حياة الملايين. فصيرت أعتى الخطاة أبراراً وقديسين، وجعلت من جبابرة الحرب ودعاء مسالمين.

يؤمن الموحدون ان أبوينا الأولين قد وقعا في المعصية وأكلا من الشجرة المحرمة، ولهذا تم طردهما من الجنة. وروت لنا التوراة كذلك أخطاء بعض الأنبياء، مثل إنكار ابراهيم لزواجه من سارة أمام فرعون وأمام أبيمالك حاكم جرار، وذلك خشية أن يقتله أي منهما ويظفر بذات الحسن والجمال. ولكن عناية الله حفظت حياته وصانت شرف زوجته.

وكما ذكرت التوراة سخرية سارة من بشارة الملائكة لها بالحمل في شيخوختها، فقد روت كذلك إشتراك يعقوب مع أُمه في الكذب على أبيه إسحاق لكي يستأثر بالبركة ويحظى بالسيادة.

ولم تُشن ضعفات موسى النبي الشخصية كلمات الوحي التي نَطق بها الرب على لسانه؛ فقبل الدعوة ذكر لنا أنه قتل رجلاً مصرياً كان يتعارك مع آخر من بني جلدته، ثم لاذ بالفرار الى أرض مديان. وحدثنا كذلك عن خطأ آخر إشترك فيه مع أخيه هارون عندما شاركا الشعب تذمره على الله ولم يقدساه في مريبة قادش.

وذكر لنا الوحي أخطاء سليمان الذي كان قد آثر الحكمة على الجاه فمنحه الرب الإثنين. وعلى الرغم من ذلك، لم تمنعه الحكمة من إكثار السراري والإماء، ولم تحل النبؤة دون إقامة الأنصاب لإرضاء النساء. وفي آخر المطاف شعر بالندم وقدم توبة لعلها صادقة.

ومن الخطايا التي يجب أن نقف عندها ملياً، خطيئة داود النبي؛ ذلك الرجل الذي إختارته العناية الإلهية ملكاً واصطفاه الوحي نبياً، قد وقع-وهو مُحصَنْ- في خطيئة إغتصاب مكتملة الأركان. فزنى بـ بتشبع زوجة أُوريا الحثي أحد قواد جيشه. ثم أمر بدفعه الى الصفوف الأمامية للجيش ليلقى حتفه. فبعث له الله ناثان النبي حكماً ونذيراً، وقص عليه النبي أن رجلاً يملك تسعاً وتسعين شاة، سال لُعابه على شاة وحيدة لرجل فقير، فأخذها وقتله. فغضب داود وحكم بموت الرجل. عنئذ قال له ناثان: "أنت هو الرجل". وهنا شعر داود بالخزي، وأجاب ناثان قائلاً: "أخطأتُ الى الرب".

وعلى الرغم من بشاعة القصة؛ إلأ أنها لا تخلوا من جوانب مضيئة: منها أن الله لم يحابيه، ولم يُحَلِّل له حراماً بل ادانه. ومنها أيضاً إعتراف داود بخطيئته ليس أمام ناثان النبي فحسب؛ بل وأمام العالم أجمع. وتوبته الصادقة التي قدمها عندما لبس المسوح والْتَحَفَ بالرماد وتذلل أمام الله بالبكاء ليل نهار طالباً منه العفو والمغفرة، فأجابه وغفر له.

وإضافة الى ذلك أن ما فعله داود وقعت فيه الملايين من الناس، العظماء منهم والأدنياء؛ ولكن من منهم تاب توبته، وأقر بفعلته أمام البشر جميعاً مثله. كان من الممكن أن تأخذه كبرياؤه كملك الى أبعد مما فعل، وينهر نبي الله ويتمادى في خطيته. ولكنه فعل ما فعل. وندم وتاب توبة صادقة، ولم يستمر في هذا الطريق. وهو من الجوانب الإيجابية في حياة الملك داود. وكم من أباطرة وملوك وأمراء غزوا شعوباً، وإحتلوا بلاداً، وإستباحوا دماء الرجال، وإغتصبوا النساء، ويتموا الأطفال، وأثكلوا العجائز وهدموا الركائز. ولم نسمع لهم

عن توبة أو ندم، وما زالنا نعظمهم ونبارك أفعالهم ونلهث في ركابهم. ونطلق أسماءهم على الشوارع والميادين.

ولم يقتصر الوقوع في الخطأ على الأنبياء كبشر، ولكنه إمتد الى ملائكة الله في السماء، فروي عن ابليس أنه إستكبر وملكته الخيلاء وقال: "أصير مثل العلي" (اش14)، ولكنه إنحدر الى الهاوية. وصدق ما قاله أيوب الصديق:

"أألإنسان أَبر من الله، أم الرجل أطهر من خالقه؟ هوذا عبيده لا يأتمنهم، والى ملائكته ينسب حماقة"(اي4).

لان بر الملائكة إذا ما قورن بقدسية الله كان كلاشئ. ليبقي الله الكل في الكل. لا يشاركه أحد في عصمته ولا في قدسيته. لا من البشر الأرضيين، ولا من الملائكة النورانيين. ولا ينبغي أن نُشرك بعصمته أحداً من دونه. وأن الإيمان بإلله وحده ليس منقوصاً، فلا يكتمل بأحد من دونه، لا من الأنبياء ولا من الملائكة.

ومهما بلغ الإنسان أعلى درجات الفضيلة والقداسة فهو ليس معصوماً، لأن القديس غير القدوس، الله وحده هو القدوس. والقديس ليس هو من لم يهفو، ولا هو من لم يخطئ، ولو مرة في حياته؛ بل هو من يجتهد في الأرض أن يكون كملائكة الله في السماء، فيسموا فوق رغبات النفس وشهواتها، حباً في الملك القدوس.

وقد إعترى الضعف البعض من تلاميذ السيد المسيح، كما حدث مع القديس بطرس الذي أنكر معلمه؛ لكنه ندم وتاب وبكى بكاءاً مراً. ومثل القديس مرقس الذي تراجع عن الخدمة في أول عهده بها. ولكنه إستعاد عزيمته وقوى إيمانه

وأصبح كاروز الديار المصرية. وأجرى الرب على يديه آيات كثيرة قبل أن ينال إكليل الشهادة. وحكى لنا القديس بولس عن خلاف آخر وقع بينه وبين القديسين بطرس وبرنابا(غلا2) لم يزد عن عتاب الإخوة، ولم يتطور الى معارك وحروب، لأن كلاً منهما لم يبغي المتاجرة برسالة المسيح ليتسلط بها على رقاب الناس أو ليتربح منها، بل ليعود المجد كله الى الله وحده. وها هو المغبوط بولس يقول:

"الى هذه الساعة نجوع ونعطش ونعرى ونُلكم. وليس لنا إقامة. ونتعب عاملين بأيدينا. نُشتم فنبارك؛ نُضطهد فنحتمل؛ يُفترى علينا فنعظ. صرنا كأقذار العالم"(1كو4).

وعندما دب الخصام بين البعض من حديثي الإيمان وأرادوا أن يؤلفوا شيعاً وأحزاباً، وبخهم القديس وقال لهم:

"لأنه متى قال واحد أنا لبولس وآخر أنا لابلوس أفلستم جسديين. فمن هو بولس ومن هو ابلوس بل خادمان آمنتم بواسطتهما.. إذن ليس الغارس شيئاً ولا الساقي بل الله الذي ينمي"(1كو3).

وفضلاً عن ذلك فإن ضعفاتهم كبشر لم تُشن رسالتهم ولم تحط من شأن خدمتهم، ولم تَعُقْ جريان المعجزات على أيديهم. وعلى الرغم من إفتقارهم للمجد الدنيوي وللسلطة المادية، فقد بلغت رسالتهم أرجاء المسكونة بقوة الله، و"الى كل الأرض خرج صوتهم، والى اقاصي المسكونة أقوالهم"(رو 10).

وهكذا نرى الوحي وقد سطر لنا أخطاء الأنبياء الشخصية، على الرغم من عصمة الوحي الذي إنبرى على السنتهم. ففي الأول أنهم بشر مثلنا كما قيل عن إيليا النبي:

"كان إيليا إنسانا تحت الالام مثلنا وصلى صلاة ان لا تمطر فلم تمطر على الأرض ثلاث سنين وستة اشهر "(يع5).

ولم يرفعهم تلقيهم للوحي الى درجة العصمة ومشاركة الله في واحدة من أخص صفاته. فلا يشاركه فيها أحد من الناس أو من الملائكة.

وإذا كان الوحي قد سجل لنا أخطاء بعضهم وهفوات البعض الاخر، فهذا لا ينفي عنهم القداسة، ولكن ينفي عنهم العصمة. والأهم من ذلك أنه لا يشين الموحى به اليهم، لأن ذلك هو الشق الموسوم بالعصمة. وإنما لكي لا ينصرف الناس الى تقديسهم وتبجيلهم وعبادتهم من دونه تعالى. كما حدث مع القديسين بولس وبرنابا عندما أجرى الرب على أيديهما المعجزات فقال الحاضرون من الوثنيين: "ان الالهة تشبهوا بالناس ونزلوا الينا "(اع14). فنهاهم القديس، وقال لهم: "نحن أيضاً بشر تحت الالآم مثلكم نبشركم ان ترجعوا من هذه الاباطيل الى الاله الحي الذي خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها" (اع 14).

ولهذا السبب أخفى الله قبر موسى النبي عن بني اسرائيل، حتى لا ينصرفوا الى عبادته من دونه تعالى.

وثانياً: لكي لا يصاب أحدهم بالكبرياء تلك الخطيئة الكبرى التي وقعت فيها الملائكة من قبل. ولهذا قال الرسول بولس عن نفسه: "ولئلا أرتفع بفرط الإعلانات، أُعطيت شوكة في الجسد" (2كو2).

وثالثا: ان ذكر أخطاء الأنبياء هو بمثابة موعظة للبشر العاديين ان يثابروا في الجهاد ضد شهوات النفس والجسد وضد الكبرياء، وضد الخطية التي "طرحت

كثيرين جرحى وكل قتلاها أقوياء"(ام7). وحتى لا ينصرفوا عن عبادة الله الى عبادة البشر مهما عظم قدرهم.

والمهم في الأمر أن الوحي لم يصادق على أخطاء الملائكة أو الأنبياء وتجاوزهم للشريعة والوصايا الالهية، ولم يبرر أخطاءهم أو يقننها لهم بل أدانها، وغفر للتائبين منهم.

واننا نَعجَبُ أشد العجب ممن يعتقدون بعصمة حملة الوحي؛ بينما ينعتون الوحي نفسه بالتحربف! وكأن الأنبياء قادرون على عصم أنفسهم عن الخطأ، والله غير قادر على عصم كلامه عن التحريف– حاشا وكلاَّ!

جـنـــة عـــدن

جاء بسفر التكوين ان الرب غرس الجنة على الأرض. وحدد مكانها عند موضع يدعى عدن: "وغرس الرب الاله جنة في عدن شرقاً. ووضع هناك ادم الذي جبله. وأنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر، وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة. وشجرة معرفة الخير والشر. وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير اربعة رؤوس" (تك5).

واختلف الباحثون عن تحديد موقع الجنة فمنهم من قال بأنها في أرمينيا حيث ينبع الدجلة والفرات، ومن قال بأنها القسم الجنوبي من العراق حيث الأرض الخصبة. وآخرون قالوا في شماله. وهناك من إعتقد أنها في أرض الرافدين جملة.

وذكر العالم فريدريك ديلتش أن مكان الجنة هو في المنطقة الواقعة إلى الشمال من بابل بين نهري دجلة والفرات. وان أرض حويلة (أرض الرمل) هي الاراضي المتاخمة للفرات من برية سورية. وان نهر فيشون كان يخترقها. وان الذهب والمقل وحجر الجزع توجد في أنحاء بابل، على الضفة الغربية من الفرات. وكوش على الضفة الشرقية. فالفرات إذن هو الذي يسقي جنة عدن برؤوسه الأربعة التي يضحى كل منها نهراً مستقلاً مع دجلة. وانه في نواحي بابل كانت توجد قناتان أو رافدان صغيران هما فيشون وجيحون. وكانا يسقيان أرض الجنوب في المناطق التي نشأت فيها بعد ذلك مدن أُور، وأرك، وبابل، وأكد، وكلنة.

وقال رولنسون أن الفردوس كان في بابل أو في نواحيها لأنها دُعيت في آثار الأقدمين: كاندونيا أي جنة دونياش وهي قريبة من(Gan–'Eden)، أي جنة عدن. وأُطلق عليها باللغة بالأكدية كلمة(Tin–tir–kî) بمعنى مكان شجرة الحياة.

وأما القائلون بأن الجنة كانت في أرمينيا، فقد بنوا رأيهم على أن هناك ينبع الفرات. ويرون أن نهر فيشون هو نهر كوراً (كورش) الذي ينبع بالقرب من منابع الفرات ليصب في بحر قزوين، ويروي السهول الواقعة بين جبال القوقاز في الشمال الشرقي والبحر الأسود غرباً حيث إقليم كولشيد، وبالتالي تكون هي أرض الحويلة المذكورة في سفر التكوين.

ويرون أن نهر أُراكُس الذي يصب هو الآخر في بحر قزوين، يضاهي جيحون. وبالتالي تكون السهول التي يرويها هي بلاد كوش حيث عاش فيما بعد ذلك الكوشيون أو الكاسيون أو الكسديون. وبلادهم تقع بين القوقاز شمالاً وبلاد فارس جنوباً.

وكما وقع في حادثتي الخلق والطوفان من تشويه أسطوري أضافته خيالات الرواة عند شعوب الشرق القديم، كذلك فعلوا في أمر الجنة، فتصور كل شعب أن مكان الجنة كان في نواحيه، طالما توفرت الأنهار والأراضي الخصبة والأشجار الكثيفة. فظن الكلدان أنها في اريدو. وزعم الهنود أنها في جبال الهيمالايا حيث تنبع الأنهار. وإعتقد الايرانيون أنها كانت في جبالهم حيث كانت تجري أنهار محيية تنحدر من السماء. وقال الصينيون أن في أحد جبالهم كانت تجري أربعة أنهار من يشرب من ماء نبعها لا يموت.

وجاء في سجلات تغلت فلاسر – تصديقاً على ما جاء في سفر التكوين– أن أرض كاندونياش تسقيها أربعة أنهار. وتصف الأسطورة السومارية الفردوس بإعتباره مكان يسوده البر والنقاء؛ ولا يدخله المرض؛ كما لا يدنوا الموت منه. وفيها أيضا: "الحمل لا يطلق صراخاً..الأسد لا يقتل؛ والذئب لا يفتك بالحمل ..لا يُسمعُ الأنين".

أما أرض كوش فهي عيلام التي كانت تُعرف قديماً بإسم كاشو. وعُرف شعبها بإسم الكاشيين والكاسيين. ومنهم خرج نمرود بن كوش وملك في بابل (تك10). والشعب الثاني هو شعب الكوشيين الأفارقة، الذين عاشوا في اثيوبيا، ومنهم حكام الأسرة الخامسة والعشرين المصرية. ويظن أن الكوشيين الأفارقة هم فرع من كوشيي علام. ولكن أغلب الظن أنهم من قبيلة مختلفة. وأن التشابه بينهما لفظي فقط.

وإنتشر خبر الجنة التوراتية في شبه الجزيرة العربية، أخذه أهل الكتاب المقيمين بالحجاز عن إخوانهم من القبائل العربية الأخرى التي كانت متاخمة للفرس والروم في العراق والشام. وهؤلاء بدورهم أخذوها عن اليهود وعن السريان والكلدان المسيحيين؛ ولكنهم أضافوا إليها الكثير مما لم يرد في القصة التوراتية. كما أنهم وحدوا بين الجنة الأرضية وبين الفردوس السماوي. ومن ذلك ما أنشده الشاعر النصراني المخضرم، أُمية ابن أبي الصلت، في وصف الجنة الأرض سماوية. وقد جانب فيه الكثير الوصف التوراتي السابق لها، فالفردوس هنا أشبه بحديقة غناء، تجري فيها الأنهار لسقاية ما بها من أشجار ونبات وحيوان، وأول البشر وزوجته، يقول أمية:

فذا عسل وذا لبن وخمـر .. وقمح في منابته صريـم

ونخل ساقط الأكتاف عـد .. خلال أصوله رطب قميـم
وتفاح ورمان ومــوز .. وماء بارد عذب سليـم
وفيها لحم شاهدة ونحـر .. وما فاهوا لهم فيها مقيـم
وحور لا يرين الشمس فيها .. على صور الدمى فيها سهوم
نواعم في الأرائك قاصرات .. فهن عقائل وهم قــروم
على سرر ترى متقابـلات .. الإثم النضارة والنعيـم
وكأس لا يصدع شاربيـها.. يلذ بحسن رويتها النديـم

وهنا يخالف أُمية النصَ التوراتي في أشياء كثيرة: منها أن أنهار الجنة هي أنهار ماء لري النباتات وليس فيها خمر أو لبن. وليس بالجنة التوراتية حور نواعم يفترشن الأسرة. ولا مجالس للندباء ولا لسكارى يحتسون الخمر في كوؤس. وليس بها أكل لحوم، فهذا ما عرفه الإنسان بعد السقوط والطرد من الجنة الأرضية.

وهذا التصور المادي للفردوس السماوي ترجمه الفنان المصري القديم على جدران المعابد الفرعونية حيث أنه تصور الحياة الأخرى على مثال الحياة الدنيا حديقة غناء يخترقها نهر زلال.

وقدم السيد المسيح صورة مختلفة عن الفردوس السماوي، وصحح لـه المجد المعتقدات الخاطئة التي كانت سائدة بين اليهود في زمان تجسده حين كان أكثر النـاس لا يهتمـون بالحيـاة الأخـرى. وكـان هنـاك فريـق لا يـؤمن بالقيامـة علـى الأطلاق مثل الأبيقوريين وجماعة الصدوقيين ومن يصدقهم.

وفريـق آخـر كـان يـرى فـي نفسـه البـر والتقـوى مـن خـلال التطبيـق الحرفـي

للنـاموس، والأخـذ بشـكل العبـادة دون جوهرهـا. ويمثلـه طائفـة الفريسـيين ذات الطابع الأرستقراطي.

وفريـق دون الجميـع يتكـون مـن طبقـة الفقـراء والمعـدمين. وقـد وقعـوا ضـحية للمحتـل الرومـاني الـذي سـلبهم الأرض، وجبـاة الضـرائب الـذين سـلبوهم المـال، ورجـال الـدين الـذين أوصـدوا أمـامهم أبـواب الآخـرة، بسلوكهم السيئ مـن ناحيـة، وبفهمهم المغلوط لناموس موسى والتطبيق الحرفي له من ناحية أُخرى. ومن هنا فقد كان تقديم المفهوم الصحيح لملكوت السموات، وشروط الدخول فيه هو من الأولويـات التـي تحـدث عنهـا السـيد المسـيح ورسـله، فـأولاً أنـه نفـى عقيـدة الصـدوقيين الـذين كـانوا يعتقـدون بفنـاء الإنسـان بعـد المـوت، وبإنتفـاء البعـث والحساب.

وثانيـاً أنـه وضـع الشـروط والصـفات التـي تجعـل الإنسـان مسـتحقاً لقبـول الخـلاص، ومـن ثـم الـدخول فـي ملكـوت السـموات. ومـن بـين هـذه الشـروط أن يتحلـى الإنسـان ببـراءة الأطفـال: "الحـق أقـول لكـم إن لـم ترجعـوا وتصـيروا مثـل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات"(مت18).

وأن يكون قلبـه عـامراً بالمحبـة خاليـاً مـن الكراهيـة والبغضـة، كمـا يقـول القـديس بولس: "إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة، ولكن ليس لـي محبـة، فقد صـرتُ نحاسـاً يطـن أو صـنجا يـرن. وإن كانـت لـي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم؛ وإن كـان لـي كـل الإيمـان حتـى أنقـل الجبـال؛ ولكـن لـيس لـي محبـة فلسـت شيئا..."(1كو13).

وعلمنا السيد وحواريوه أن ملكوت السموات هو ملكوت روحي، وأن الأجساد

سوف تُبعث نورانية الطبع، دون الطبيعة المادية الترابية التي خُلق عليها. وأن الحياة الأخرى تختلف عن الحياة الأرضية إختلافا كلياً، وأن هناك "ما لم تر عين، ولم تسمع إذن، ولم يخطر على بال إنسان، ما أعده الله للذين يحبونه "(1كو2). أي أن ملكوت السموات يختلف عن كل ما رأيناه وسمعنا عنه أو تفكرت به عقولنا. وليس به شيئاً من أمور الدنيا، لأنه في حال الموت، تنتقل الروح الى باريها، ويعود الجسد الى التراب الذي أخذ منه، ومن ثم فلا يوجد موضع للطعام والشراب وغير ذلك من إحتياجات الجسد الترابي: "ليس ملكوت الله أكلا وشرباً بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس"(1كو2).

ولأن الأجساد سوف تُبعث نورانية، فلا تكون بحاجة الى الطعام والشراب والتبول والتبرز وغير ذلك من نقائص الجسد. وقد عبر بين القديس بولس ذلك لأهل كورنثوس، قال: "إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله. ولا يرث الفاسد عدم الفساد. لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد. وهذا المائت يلبس عدم موت"(1كو15). أي أن الاجساد حين تبعث، سوف تكتسب خواص الخلود الروحانية. ونفى السيد المسيح وجود زواج وجماع في ملكوت السموات، بصريح القول:"لأنهم متى قاموا من الأموات لا يزوجون ولا يزوجون؛ بل يكونون كملائكة في السماوات"(مر12).

وليس في ملكوت السموات مكاناً لمثل هؤلاء إلأ إذا ندموا وتابوا توبة صادقة: "لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور. ولا سارقون ولا طماعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله "(1كو6).

ومن أجل الحظوة بالملكوت، يتعين على المؤمن أن يحتمل الضيقات بصبر، كما يقول المغبوط بولس: "لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل

مجد أبدياً. ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى بل إلى التي لا تُرى، لأن التي تُرى وقتية؛ وأما التي لا تُرى فأبدية"(2كو4).

وفي الملكوت يتم تطبيق العدالة المطلقة، بحيث أن كل إمرءٍ سوف يلقى الجزاء العادل ليس على الظاهر فقط، بل على الباطن والخفي أيضاً(رؤ6).

وسوف يُكافأ الذين ظُلموا على الأرض، "وسيمسح الله كل دمعة من يونهم. والموت لا يكون فيما بعد. ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت"(رؤ21).

وكل من إرتكب جوراً في السر أو في العلن سوف ينكشف سره أمام الله، لدرجة أن الناس في يوم الدين سوف يتمنون لو أن الجبال تحجب آثامهم وتستر أفعالهم القبيحة: "حينئذ يبتدئون يقولون للجبال أُسقطي علينا وللآكام غطينا"(لو23).

قبل الشريعة الموسوية لم تكن كل زيجات الاقارب قد حُرمَّت بعد. فقد اقترن ابناء آدم باخواتهم. وتزوج ابراهيم من اخته لابيه. وكانت شرائع القوم انذاك تجيز ما هو أكثر من ذلك، وهو زواج الأخ الأصغر من ابنة أخيه الأكبر، وليس العكس، مثلما تزوج ناحور من ملكة ابنة هاران أخيه الأكبر (تك11). ولم تحرم التوراة التعدد، ولكنها حرمت على الرجل اخته، وامرأة ابيه، وكنته، وعمته، وخالته، وطليقة اخيه. واجازت له الزواج من ارملة اخيه. كما حرمت زواج الرجل وابنه من امرأة وابنتها. وحرمت الزواج من ام وابنتها. ومنعت الاقتران بأختين الا في حالة وفاة احداهن (لا18). وحتى هذه منعتها المسيحية على اعتبار ان اخت الزوجة هي بمثابة اخت الزوج.

واجازت التوراة الطلاق في حال استحالة العيش بين الزوجين. ولكن اذا طلق رجل امراة، فتزوجت برجل اخر، ثم مات هذا الاخر او طلقها لا يمكنها في هذه الحالة ان ترجع الى طليقها الاول: "لا يقدر زوجها الاول الذي طلقها ان يعود ياخذها لتصير له زوجة بعد ان تنجست لان ذلك رجس لدى الرب"(تث24).

وقديما كانت الضرورة تقتضي التعدد في بعض الاحيان، مثل عقم الزوجة مثلما حدث مع ابراهيم الخليل الذي تزوج هاجر لحاجته الى الولد الذي لم تعطه له سارة بسبب عقمها.

وسمحت شريعة حمورابي للرجل باتخاذ زوجة ثانية اذا مرضت زوجته الاولى، ولكنها الزمته بالابقاء على الزوجة المريضة وعدم تطليقها، بل والقيام

على خدمتها طيلة حياتها(مادة 148). واعطت للمرأة الحق في فض رباط الزوجية (الخلع) اذا أساء الرجل معاملتها (مادة 127). كما اعطتها الحق في الزواج اذا طالت فترة غياب زوجها عن البيت لاسباب معينة مثل وقوعه في الأسر(مادة 134). أما إذا تركت زوجها بدون سبب قهري، فانها تُلقى في النهر(مادة 143).

وكان الرجال يقدمون على التعدد لكثرة الايامي اللوات كن يفقدن بعولهن في الحروب ويحتجن لمن يعولهن ويلبي احتياجاتهن. فكان الزواج هو السبيل الوحيد لاجتناب المخاطر الاجتماعية والاقتصادية والامنية التي كانت تتعرض لها غير المتزوجات. ولهذا كانت المرأة تفضل ان تحتمي برجل كضرة من ان تتعرض للخطر والمضرة. ناهيك عن حاجة الناس الى الاولاد للدفاع عن القبيلة ولحمايتها من الانقراض. وفي غياب الالة، كانت هناك حاجة ماسة الى الايدي العاملة لتذليل العقبات الطبيعية ولمواجهة الاخطار البيئية والبشرية.

أما الآن فقد تبدلت الأمور في ظل التطور. وخرجت المرأة للعمل الى جانب الرجل. واصبح بامكانها ان تعول نفسها بنفسها. واصبحت لديها مكانة سامية مقارنة بما كانت عليه في السابق، خاصة في المجتمعات المتقدمة التي لا يسمح فيها بتزويج القاصرات، والتي لا يمتلك فيها الرجل حق التعدد ولا حق التطليق بكلمة تصدر من فمه في لحظة غضب، تتسبب في خراب البيت وتشتيت شمل الاسرة.

وفي ظل التعدد، والطلاق، وكثرة الانجاب، تكثر المشاكل والنزاعات، سواء بين الزوجات وبعضهن، او بين الابناء وبعضهم. في ظل ظروف اقتصادية

صعبة، وتضخم سكاني يفوق الوصف. فقد ضاقت الارض بمن عليها إلى حد ان الأخوة يتقاتلون على بضعة اشبار في عقار. واصبحت الملكية العقارية تقاس بالسنتيمترات. فلم تعد هناك حاجة الى التعدد ولا الى كثرة الانجاب.

ومن اجل الارتقاء باخلاق البشر والتسامي على الرغبات والغرائز، ومن اجل حياة اسرية سعيدة، فقد نهت المسيحية عن التعدد وعن الطلاق الا في حالة الخيانة الزوجية من احد الطرفين.

والحكمة من اقصار الطلاق على علة الزنى هو ان الزوجين يصبحان جسدا واحدا. ويكون لهما مصير واحد وراي واحد وهدف واحد. وللحفاظ على تلك الوحدة دون وقوع الاختلاف والخلاف والفرقة، الزم الزوجة ان تطيع زوجها(اف5)؛ والزم الزوج ان يحبها مثل نفسه(اف5). ولا يتزوج بغيرها ما دامت على قيد الحياة، والا يطلقها إلا لعلة الزنى(مت19).

وقد سمح موسى النبي بالطلاق(تث24 :1) في اضيق حدوده، وجعل له كتابا حتى يتريث الرجل في قرار مصيري كهذا. وقد أشار الوحي إلى كراهية الله للطلاق بقوله: "لأنه يكره الطلاق قال الرب"(ملا2).

والطلاق يترك أثاراً سلبية على الابناء في جميع الحالات. وبخاصة اذا عاشوا مع زوجة الاب او مع زوج الام. ولك ان تتخيل الحالة النفسية لأبناء في سن المراهقة تطلقت أمهاتهم وتزوجن برجال آخرين. إنه لشعور قاسي أن يجد المراهق أمه تبيت في حضن زوج غريب، غير أبيه.

والحكمة من منع التعدد هو ان المرأة ليست مجرد اداة لامتاع الرجل جنسياً، وليست وعاءً للانجاب. وكما أنه لا يحق للمرأة ان تعدد الازواج، كذلك لا يحق له ان يعدد الزوجات. لان الله منذ البداية لم يخلق لحواء أكثر من رجل، ولم يخلق لادم أكثر من حواء. "أما قراتم ان الذي خلق من البدء خلقهما ذكرا وانثى"(مت19).

وقد اجازت المسيحية الزواج لأحد الطرفين في حال موت الآخر: "المراة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيا ولكن ان مات رجلها فهي حرة لكي تتزوج بمن تريد في الرب فقط "(1كو7).

لانه بالموت تموت قوى الإنسان الجسدية والغريزية وتصعد الروح الى باريها حيث لا توجد غيرة في السماء. كما انه مع الوجود في حضرة الملائكة وارواح القديسين، ومع الوجود في الحضرة الإلهية، لا يوجد مكان لاشتهاء شئ اخر.

وتستند المسيحية في هذا الأمر الى رد السيد المسيح على الصدوقيين الذين سألوه باستنكار عن مصير زوجة اقترنت بسبعة ازواج على التوالي وكانت كلما تزوجت بواحد لا يلبث ان يموت، فلمن منهم تكون زوجة يوم تبعث الأجساد، فقال لهم: "تضلون اذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله. لانهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء"(مت22).

ويحتج مؤيدوا التعدد بانه يحل مشكلة العنوسة التي ارتفعت نسبتها. وهذا غير صحيح، ولن يتحقق ذلك الا اذا تزوجت الانسات ومنعن انفسهن من الانجاب، وهذا غير منطقي ولا انساني، اما اذا تزوجت وانجبت، فسوف تلدن

بناتا اكثر من الاولاد، وتظل المشكلة قائمة. وفي غضون سنوات يرتفع عدد الاناث وتتضاعف نسبة العنوسة. ناهيك عن المشاكل التربوية والاجتماعية والاقتصادية التي تنجم عن التعدد وعن كثرة الطلاقات وعن الافراط في الانجاب. وكل ذلك يترتب عليه الحرمان من الحياة الأرضية السعيد، ومن الأبدية المجيدة في ظل المشاكل والخلافات وارتفاع نسبة الجريمة نتيجة لضيق ذات اليد ولحرمان الاطفال من الرعاية الابوية، والتي لا تتحقق الا في ظل بنية اسرية سليمة تتكون من اب وام واولاد، وليس من زوج وقطيع من النساء والابناء.

وعلى الرغم من ان الزواج يعد أمرا مقدسا، إلا أن هناك اناس اختاروا العذرية لهم طريقا، واستبدلوا الرغبة في الزواج، بالتفاني في محبة الله (مت19: 12). وقد قدموا مثالا عملياً للتبتل والقداسة، وبرهنوا على ان الانسان بمقدوره ان يسموا على غرائزه الجسدية والنفسية، وان يحيا حياة روحانية ملائكية.

وكان القديس بولس من بين الرسل الذين اختاروا العذرية للتفاني في خدمة الرب. وكان يؤثر رسامة غير المتزوجين مثله لخدمة سيده مبررا ذلك بأن المتزوج يهتم بالزوجة، اما غير المتزوج فيكرس حياته كلها لله: "فاريد ان تكونوا بلا هم غير المتزوج يهتم في ما للرب كيف يرضي الرب. وأما المتزوج فيهتم في ما للعالم كيف يرضي امراته"(1كو7).

وعلى اقل تقدير فـ " ليكن لكل واحد امراته وليكن لكل واحدة رجلها"(1كو7)، لا اكثر.

لا شك أن لكل لغة جمالياتها وأوزانها وموسيقاها. ولها شعراؤها وأدباؤها الذين براعوا في قرض الشعر، وتأليف النثر، والذين لمعت أسماؤهم في سماء الأدب مثل هوميروس، وفرجيل، وغيرهما من شعراء الأوربية. ومثل أُمية وعنترة وامرؤ القيس وغيرهم من شعراء العربية. وكان للغات القديمة أيضاً شعراء وحكماء ورجال دين، يكتبون النثر ويقرضون الشعر، فينشدون به الصلوات والابتهالات التي تتلى داخل المعابد والكعبات، لمدح الارباب والربات مثل آمون وبعل واللآت.

ولقد إحتوى الكتاب المقدس على بعض الأسفار الشعرية مثل المزامير والأمثال. في هذه الأسفار راعى من دونها إستعمال الأوزان الشعرية في صياغة ما يُمليه الوحي. وهنا يجب الإشارة الى أن الوحي في الفهم المسيحي يعني أن الله يُلهم الشخص المُنتَقىَ لتبليغ الرسالة السماوية بالمعاني والإلهامات الربانية، ويترك له الحرية في التعبير عنها بالأسلوب الذي يريده بإستثناء بعض الأوامر المباشرة كما في الوصايا العشر. ولهذا جاءت أسفار الأنبياء وبشائر الحواريين الأصفياء ورسائلهم العصماء متباينة في الأسلوب والتعبير، متفقة في المعنى والتقرير.

ويتأثر اسلوب الكاتب بثقافته الشخصية. كما يتأثر باللغة ودلالة الألفاظ ومعانيها وفقاً للزمان والمكان الذي عاش فيه. ومثال على ذلك ما نلاحظه من أثر علم القديس بولس بالفلسفة ودرايته بالبلاغة على اسلوب رسائله- الى جانب إيمانه وخبراته الروحية. وهذه البلاغة وتلك المعاني تتوراى جزئياً في الترجمات

المنقولة عن النص الرئيس. وتكاد تختفي تلك البلاغة عند ترجمة الأسفار الشعرية. فتنعدم الأوزان وتضمحل القوافي وتتوارى البلاغيات الأخرى. ناهيك عن دلالات بعض الألفاظ التي لا تجد لها في اللغة المنقول إليها ما يطابقها في المعنى. فتحصل إشكاليات عندنا عندما نطالع نصاً قديماً، ونحاول فهمه بمقاييس عصرنا وبثقافة مجتمعنا، وبمفردات لغتنا.

وعندما انتقلت قبائل يهودية الى شبه الجزيرة العربية عقب التدمير الذي ألحقه الآشوريون بمملكة الشمال؛ والآخر الذي أحدثه البابليون بمملكة الجنوب، في القرن السابع قبل الميلاد؛ والثالث الذي قام به الرومان في القرن الأول للميلاد، فإنهم أخذوا معهم كتبهم النبوية والتراثية. وتم نقلها الى اللسان العربي الذي أثر وتأثر بلغة النازحين وثقافتهم. وبات التراث اليهودي- والمسيحي بعد ذلك- معروفاً هناك، لدى أهل الكتاب. وترك أثراً ثقافياً وسلوكياً وعقدياً على أهل ذلك الزمان. وظهر في الشعر الجاهلي على وجه الخصوص، ليس في شعر الموحدين من شعراء الجاهلية كـ أُمية، وورقة؛ بل وفي الوثنيين أيضاً مثل الأعشى، وزهير بن أبي سلمى. ومن ذلك ما أبيات منسوبة الى شاعر مؤمن يدعى لبيد يعبر فيها عن إيمانه بالله وقدرته، وبضرورة حمده، وبيوم الحساب، يقول:

ألاَ كل شيء ما خلا الله باطل..وكل نعيم لا محالة زائل
وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه..إذا كُشِفَتْ عند الإله الخصائل
أحمد الله فلأن له .. بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير إهتدى..ناعم البال ومن شاء أضل

وكان عمرو بن كلثوم من الشعراء المؤمنين بالله أيضا، وفي الأبيات التالية نسمعه يجاهر بإيمانه، ويطلب من الله العفو والمغفرة. كما يحث الناس على إتقائه تعالى، يقول:

أربَّاً واحداً، أم ألف رب .. أدين إذا تقسمت الأمورُ

ولكن أعبد الرحمن ربي .. ليغفر ذنبي الرب الغفورُ

فتقوى الله ربكم أحفظوها.. متى ما تحفظوها لا تبوروا

وعبر شاعر يدعى عن إيمانه بالبعث والقيامة، وعن خوفه من يوم الحساب، بأبيات بليغة، قال فيها:

أعوذ بربي من المخزيات.. يوم ترى النفس أعمالها

وخفت الموازين بالكافرين.. وزلزلت الأرض زلزالها

وسُعرت النار فيها العذاب.. وكانت السلاسل أغلالها

وأنشد امرؤ القيس أبياتا عبر بها عن إيمانه بتجلى قدرة الله في الطبيعة، وعن إمتنانه بالله الذي يرسل المطر عبر السحاب ليروى الأرض الظمأى، يقول:

تلك السحاب إذا الرحمان أرسلها..روى بها من محول الأرض إيباسا

تلك الموازين والرحمان أنزلها .. رب البرية بين الناس مقياسا

وقرض ورقة بن نوفل من بيوت الشعر ما يجسد إيمانه بالله؛ ودأبه على إرتياده البيع للصلاة ونوال البركة، قال:

أدين لرب يستجيب ولا أرى .. أدين لمن لا يسمع الدهر داعيا

أقول إذا صليت في كل بيعة .. تباركت قد أكثر بإسمك داعيا

وكان بعضهم يتغنى بالفضائل وحسن الخصائل مثل الكرم المنبثق عن الإتكال على الله، والذي نراه في شعر الطائي وهو يقول:

قالت طريفة ما تبقى دراهمنا..وما بنا سرف فيها ولا خرق

إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا..ممن سوانا ولسنا نحن نرتزق

كلوا الآن من رزق الاله وايسروا..فإن على الرحمن رزقكم غدا

ولم يقتصر التأثير في الشعر على الفضائل والأمور الإيمانية بل امتد الى القصص التوراتية التي وردت في الكتاب منثورة فأنشدها الشعراء موزونة. ومن ذلك قول ابن جهم يصف خلق آدم، وسقوطه في المعصية، وطرده من الجنة، على النحو الوارد في السفر الأول من التوراة، يقول:

يا سائلي عن إبتداء الخلـق .. مسألة القاصد قصد الحــق

أخبرني قوم من الثقـات .. أولو علوم وأولو هيئـــات

تفرعوا في طلب الآثـار .. وعَرفوا موارد الأخبـــار

ودرسوا التوراة والإنجيـلا .. وأحكموا التأويل والتنزيـــلا

إن الذي يفعل ما يشـاء .. ومن له القدرة والبقـــاء

أنشأ خلق آدم إنشـاء .. وقدَّ منه زوجَه حـــواء

أسكنه وزوجه الجنانـا.. فكان من أمرهما ما كانـــا

فشقيا وورَّثا الشقـاء.. نسلهما والكد والعنـــاء

وإنتشرت في المجتمع العربي قصص وأخبار أُخرى من التوراة، ومن باقي أسفار العهدين مثل قصة الخلق، وقصة نوح والطوفان، وابراهيم، وموسى، ويوسف وفرعون، وغيرها من القصص. وأخذ بعض الشعراء تلك القصص ووضعوهم في قالب شعري معبر ومؤثر. ومن أمثلة ذلك قرض أمية للمنثور الوارد عن نوح والطوفان في الأصحاحات من السادس الى التاسع من سفر التكوين، يقول فيه:

فار تنوره وجاش بمـاء.. طم فوق الجبال حتى علاهـا

قيل فأهبط فقد تناهت بك ألفلك.. على رأس شاهق مرساهـا

وأرسلت الحمامة بعد سبـع.. تزل على المهالك لا تهـاب

وتلمس هل ترى في الأرض عينا.. به تيبس أو اضطـراب

فجاءت بعدما ركضت بقطف.. عليه الثلط والطين والكشـاب

وأنشد أُمية كذلك شعراً عما ورد بقصة لوط المذكورة في الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين، قال:

ثم لوطا أخو سدوم أتاهـا .. إذ أتاها برشدها وهُداهـا

راودوه عن ضيفه ثم قالـوا .. قد نهيناك أن تقيم قراهـا

عرَّض الشيخ عند ذاك بنات.. كظباء بأجرُع ترعاهـا

غضِب القوم عند ذاك وقالوا .. أيها الشيخ خُطبةً نأباهـا

أجمع القوم أمرُهم وعجوز.. خيب الله سعيها ورجاهـا

أرسل الله عند ذاك عذابـا.. جعل الأرض سُفلها أعلاها

ولم يقتصر تأثير الكتاب وأهله في الشعر العربي، بل إنه امتد الى الثقافة العربية برمتها؛ وهو أمرٌ مازال يجهله الكثيرون، ويعمد الى طمسه العارفون، مطنطنين بتحريف الكتاب، وطاعنين في سلامة الوحي المقدس.



سليمان الحكيم

عندما تولى سليمان مقاليد الحكم، لم يكن الغني المادي مطلبه، ولا كان جني المال هدفه ومرصده؛ بل إن حسن سياسة الرعية هو مآله ومقصده. فلذلك بسط يداه نحو العلاء طالباً الحكمة من رب السماء. فمنَّ الله عليه بالحكمة وزاده من المال والجاه، قال سليمان في صلاته لله: "فاعط عبدك قلبا فهيماً لأحكُم على شعبك وأُميز بين الخير والشر"(1مل3).

وتجلت حكمته منذ أول قضية عُرضت عليه، عندما جاءته إمرأتان تشكوان إليه أمرهما. وكان لكل منهما رضيع من زنى. وحدث أن مات إبن إحداهما أثناء الليل، فأخذته، ووضعته في حضن زميلتها وهي نائمة، وإستبدلته بإبن زميلتها الحي. وفي الصباح إكتشفت أم الطفل الحي ما فعلته الأخرى، فقالت للملك:

"فلما قمت صباحاً لأرضع إبني إذا هو ميت. ولما تأملت فيه في الصباح إذا هو ليس إبني الذي ولدته. وكانت المرأة الأخرى تقول كلا بل إبني الحي وإبنك الميت.. فقال الملك إيتوني بسيف! فأتوا بسيف بين يدي الملك. فقال الملك اشطروا الولد الحي إثنين واعطوا نصفاً للواحدة ونصفاً للأخرى. فتكلمت المرأة التي إبنها الحي إلى الملك، لأن أحشاءها إضطرمت على إبنها، وقالت إستمع يا سيدي! اعطوها الولد الحي، ولا تميتوه! وأما تلك فقالت: لا يكون لي ولا لك اشطروه. فأجاب الملك وقال: اعطوها الولد الحي ولا تميتوه فإنها أُمه". فهابه الشعب لأنهم رأوا حكمة الله في حكمه.

وجاء بسفر الملوك الاول عن سليمان أنه: "تكلم عن الأشجار من الأرز الذي في لبنان إلى الزوفا النابت في الحائط. وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك"(1مل4).

وجمع سليمان بين الملك والنبؤة والحكمة. وكان يستعين بالموجودات المحسوسة للتعبير عن أشياء غير ملموسة، ومن ذلك قوله:

"لقد ضللنا عن طريق الحق. ولم يضئ لنا نور البر. ولم تشرق علينا الشمس.. فماذا نفعتنا الكبرياء. وماذا أفادنا إفتخارنا بالأموال. قد مضى ذلك كله كالظل وكالخبر السائر..أو كطائر يطير في الجو، فلا يبقى دليل على مسيره. يضرب الريح الخفيفة بقوادمه. ويشق الهواء بشدة سرعته، وبرفرفة جناحيه يعبر. ثم لا تجد لمروره من علامة.. كذلك نحن ولدنا ثم اضمحللنا ولم يكن لنا أن نُبدي علامة فضيلة؛ بل فنينا في رذيلتنا. كذا قال الخطاة في الجحيم. لأن رجاء المنافق كغبار تذهب به الريح، وكزَبد رقيق تطارده الزوبعة وكدخان تبدده الريح.. اما الصديقون فسيحيون إلى الأبد، وعند الرب ثوابهم، ولهم عنايةٌ من لدن العلي .."(الحكمة5).

وعبر عن دهشته من قدرة الله في تسخير عناصر الطبيعة، بقوله:

"من صعد إلى السماوات ونزل؟ من جمع الريح في حفنتيه؟ من صر المياه في ثوب. من ثبت جميع أطراف الأرض"(ام30).

وتكلم عن دورة الرياح التي تُجسد القدرة الإلهية في النظام الكوني، قال:

"الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال. تذهب دائرة دوراناً. والى مداراتها ترجع الريح"(جا1). "كما أنك لست تعلم ما هي طريق الريح، ولا كيف العظام في بطن الحبلى، كذلك لا تعلم أعمال الله الذي يصنع الجميع"(جا11).

وشبه أعمال الإنسان على الأرض بالرياح إذا ما قورنت بالحياة السمائية: "رأيت كل الأعمال التي عُملت تحت الشمس، فإذا الكل باطل وقبض الريح" (جا1). "من يرصد الريح، لا يزرع. ومن يراقب السحب، لا يحصد"(جا11). واستنكر تأليه الناس لعناصر الطبيعة، كونها مخلوقات وليست الهة، فقال في سفر الحكمة:"لكنهم حسبوا النار أو الريح أو الهواء اللطيف أو مدار النجوم أو لجة المياه أو نيري السماء آلهة تسود العالم"(الحكمة 13).

ونسب المورخون علمَ سليمان وحكمته وأعماله إلى الطير والجن والإنس الى جانب خاتمه صاحب الخوارق. فقال الطبري: "وأتاه مع المُلكَ النبوّة، وسأل الله أن يؤتيه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب له وسخّر له الإنس والجنّ والشياطين والطير والريح... وكان إذا أراد الغزو أمر بعمل بُساط من خشب يسع عسكره. ويركبون عليه هم ودوابهم، وما يحتاجون إليه. ثمّ أمر الريح فحملته، فسارت في غدوته مسيرة شهر، وفي روحته كذلك. وكان له ثلاثمائة زوجة وسبعمائة سرّيّة. وأعطاه الله أجراً أنه لا يتكلّم أحد بشيء إلاّ حملته الريح إليه فيعلم ما يقول "[1].

---

1) الطبري، تاريخ الامم والرسل والملوك، جـ1، صـ 344.

وبتعبير رمزي قال في سفر الجامعة: "لا تُسب الملك ولا في فكرك. ولا تسب الغني في مضجعك. لأن طير السماء ينقل الصوت. وذو الجناح يُخبر بالأمر"(جا10). كناية عن وجود جواسيس قد تنقل السباب فتكون العاقبة وخيمة.

وجاء في أخباره أنه سخر مائة وثمانية وثلاثين ألفاً من الرجال لأعمال البناء والتشييد(1مل 2). كما انه أنفق على البناء من الذهب الذي كان يأتيه من أُوفير. وتعاون معه صهره حيرام ملك صور وأمده بخشب الأرز وبالنجارين والبنائين لتشييد الهيكل(1مل5).

ولكن إبن الأثير قال أن سليمان إستعان على بناء الهيكل بالجن والشياطين، وأنه: "بناه بالرخام، وزخرفه بالذهب، ورصعه بالجواهر. وقوي على ذلك جميعه بالجنّ والشياطين، فلمّا فرغ اتخذ ذلك اليوم عيداً عظيماً وقرّب قرباناً، فتقبّله الله منه"[1].

وعن علاقته بالجن والشياطين قال الطبري أيضاّ:

"كان سليمان بن داود يوضع له ستمائة كرسى ثم يجئ أشراف الإنس فيجلسون مما يليه ثم يجئ أشراف الجن فيجلسون مما يلى الإنس قال ثم يدعو الطير فتظلهم ثم يدعو الريح فتحملهم قال فتسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر".

وذاع صيت سليمان بين الملوك، وبادر الكثيرون منهم الى التقرب إليه، تارة بإرسال الهدايا والمساعدات، مثلما جرى من حيرام ملك صور ومن ملكة التيمن (1اخ9)، وتارة بالمصاهرة كما حدث مع فرعون(1مل3).

---

1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ1، صـ 174.

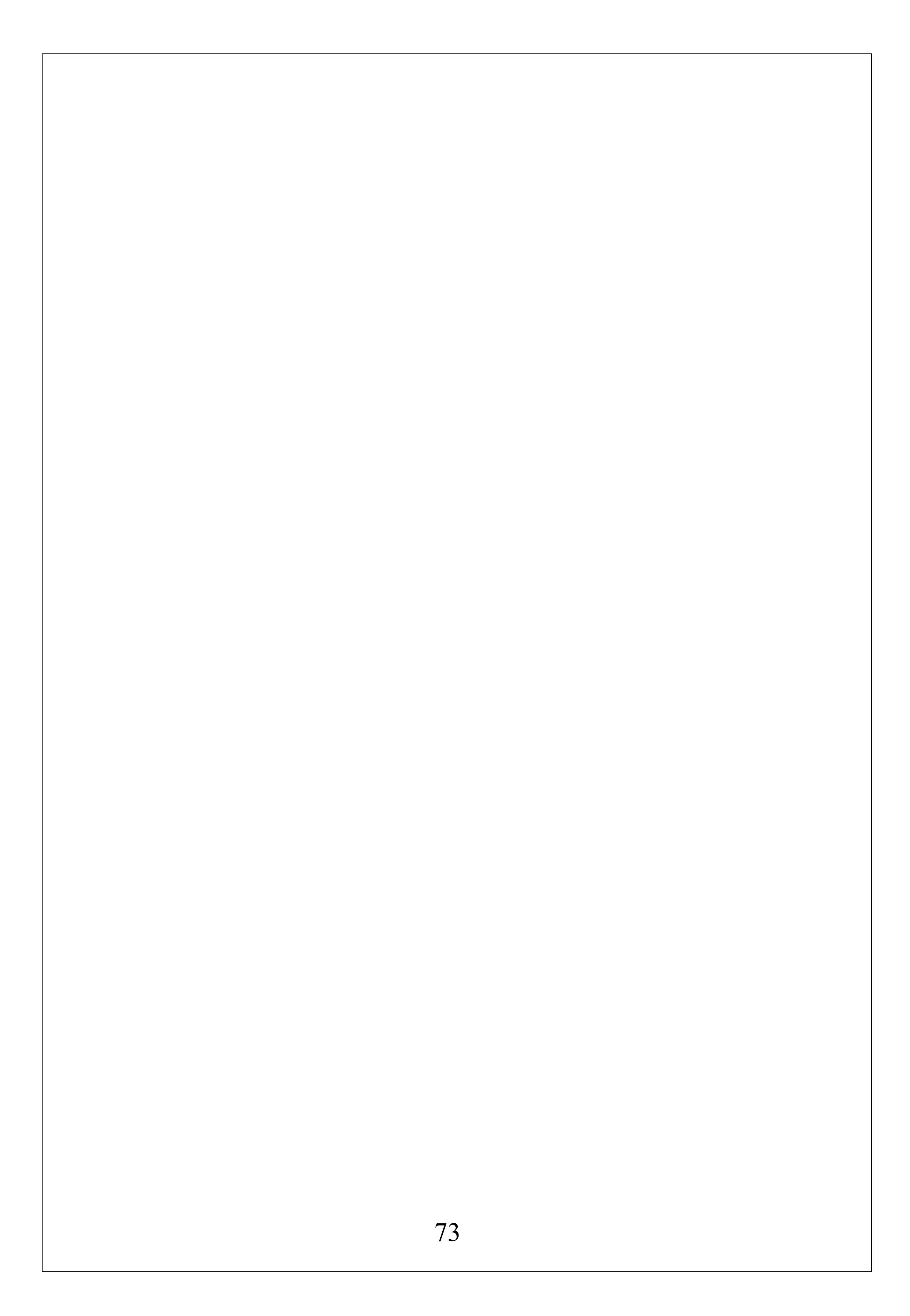
وأشار سفر الملوك الأول في سطور قلائل الى زيارة ملكة سبأ لسليمان: "سمعت ملكة سبا بخبر سليمان لمجد الرب، فأتت لتمتحنه بمسائل..فأخبرها سليمان بكل كلامها لم يكن أمر مخفياً عن الملك لم يخبرها به..فقالت للملك صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك.."(1مل10).

وكان لتلك الزيارة أثرها في إعتناق بلقيس لدين سليمان، ومن ثم إنتشاره في اليمن. وإستمرت اليهودية هناك أمداً طويلاً حتى أن الملك الحميري يوسف أسار يثأر(ت530م) المعروف بذي نواس شن حملة إضطهاد عنيفة ضد مسيحي نجران، وإنتهت مملكته على يد الأحباش.

وشغلت قصة سليمان وملكة سبأ صفحات كثيرة في كتب المؤرخين، ومنهم الطبري الذي تحدث في تاريخه عن زيارة تلك الملكة وما تخللها من غرائب وعجائب، فقال أن هدهد سليمان ضل طريقه حتى وصل إلى سبأ. وهناك تعرف إلى هدهد ملكة سبأ، وتباهى كل منهما بمولاه. ثم رجع الهدهد السليماني إلى صاحبه ليخبره برفعة بلقيس وإمتداد ملكها، ما شجع سليمان على مراسلتها–وهذا وما يليه لم يرد في أخبار سليمان الكتابية–. وبعد مكاتبات بينهما ذهبت بلقيس إلى ملك اليهود. وكان لما قرُب موكبها منه أنه أمر من كان تحت سلطانه من الجن أن يُحضر له سريرها، فحمله إليه أحدهم من سبأ إلى قصر سليمان في لحظة من الزمن. فلما رأته الملكة عجبت أشد العجب، وأصابها الذهول من إعجاز ما رأت[1].

---

1) الطبري، تاريخ الامم والرسل والملوك، جـ1، صـ 347– 350.



على الرغم من إنتشار الوثنية في أرجاء العام القديم، إلأ أننا لا ننكر علي الأسلاف تقدمهم الحضاري المذهل، كما في مصر وبابل وفارس والصين وغيرها. وتدل شرائعهم على أنهم كانوا على درجة ما من الرقي الأخلاقي مقارنة بالشعوب الهمجية التي لم تعرف الإستقرار والحضارة. وكانت حياتها تقوم على الصيد والقنص والإغارة.

وقد إنبثق التقدم الحضاري من رفعتهم الأخلاقية التي فاقت إنحطاطنا، ومن صدقهم الذي تجاوز نفاقنا، ومن علمهم الذي فاق جهلنا. ولست أظن أن عتات المجرمين في زمانهم فعلوا ما فعلته دواعشنا وبوكوحرامنا.

فليس من الحق في شيئ أن نعتقد بأن كل الذين عاشوا قبلنا كانوا جميعاً أشراراً ومارقين، وأننا نحن فقط الفضلاء السمحين. والواقع يشهد أن شرور المؤمنين بالرسالات السماوية، قد تفوقت على شرور الذين جاهروا قديماً بالتعددية، والذين أنكروا حديثاً الربوبية.

لقد كانت للقدماء شرائعهم التي تحثهم على الخير وتنهاهم عن الشر. وكانوا يؤمنون بالقيامة وبالحساب في يوم الدين. ما جعلهم يحرصون على إجتناب الشر، والسير في طريق الخير.

ونستدل على ذلك من أقوال بعضهم، ومنها ما جاء على كاجمني قبل ما يزيد عن أربعين قرناً، قال: "اسلك بالإستقامة لئلا ينزل عليك غضب الله ".

وقال بتاح حُتِبْ: "لا تُرهِب الناس لئلا يضربك الله بعصى انتقامه..إذا عشت من مال الظلم نزع عنك الله نعمته.. لا تخن من إئتمنك، وإذا دخلت بيتاً فلا تشتهي نساءه..إذا حكمت بين الناس فاسلك طريق العدل..إبتعد عن الشر واحذر الطمع فانه داء عميق لا دواء له.

وقال آني: اخلص للرب في أعمالك..لا تفعل ما لا يرضيه..احفظ لسانك عن الإساءة للناس لأنه سبب كل الشرور. لا تتردد على بيوت الخمر لأن عواقبها وخيمة.

وقال آخر: لا تسرق مال غيرك لئلا تموت ويتبدد مالك..إذا أذل الغني فقيراً أذله الإله في الدنيا وعذبه في الاخرة..لا تُسَرّ بمال الظلم لأنه سريع الزوال..لا تتلصص على جارتك كما الذئب في مخبئه..لا تذكر أحداً بسوء، وإجعل كلامك دائماً في الخير وابتعد عن الشر.

إذا مات الأب، قالت الملائكة: لقد مات من كان الناس يكرمونك من أجله. وإذا ماتت الأم، قالت الملائكة: لقد ماتت من كان الإله يكرمك من أجلها.

وقال أحيقار الآشوري: لا تزن بامرأة صاحبك لئلا يزني آخرون بإمرأتك..لا تجلب عليك لعنة أبيك وأمك.. اخفض صوتك.. فإنه لو كان المرء يستطيع أن يبني بيتا بالصوت المرتفع لكان الحمار يستطيع أن يبنى دارين في يوم واحد.

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هو مصير الذين عاشوا في عصور الوثنية، وكانوا ملتزمين بشرائع وأعراف تلك العهود التليدة ؟

إن الله لا يترك نفسه بلا شاهد يشهد له، وأول شاهد لازَم الإنسان منذ خلقه هو الضمير. وهو بمثابة الناموس الطبيعي الذي يُبكت الإنسان على الشر

ويحثه على عمل الخير. وفي ذلك يقول القديس بولس: "الأمم الذين ليس عندهم الناموس(الوحي والشريعة)، متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس، فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم. الذين يُظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم شاهداً أيضاً ضميرهم"(رو2).

وهنا ترد مجموعة من الأسئلة: هل يذهب جميع هؤلاء الوثنيون الى الجحيم لأنهم كانوا وثنيين لا يعبدون الله ؟ ما ذنب الذين ولدوا وتربوا في رحاب الوثنية والتزموا أحكام الناموس الطبيعي(الضمير) وأحكام شرائهم الذي أوردت بعضاً منها؟ هل من العدل أن يضن الله عليهم بالوحي والهداية، ثم يقذف بهم الى نار جهنم، الصالح منهم والطالح ؟ إذا كان بالإمكان نجاة غير المؤمنين بالله من العذاب الأبدي فما جدوى الوحي والأنبياء وما ضرورة التجسد والفداء؟

إن المطالبين بتنفيذ أوآمر الوحي هم الذين بلغهم الوحي، وأما من لم يبلغهم، فعندهم ضميرهم وفطرتهم. أما لماذا لم يبلغهم الوحي، فهذا يخص صاحب الوحي.

ورداً على القول بأن لا خلاص بغير الإيمان بالفداء. أقول: نعم. ولكن الفداء قد جُعل للعالم كله. وسوف ينتفع به كل من كان مستحقاً له سواء ممن عاشوا بعده، وحكمهم في ذلك حكم من عاشوا قبله، أُولئك الذين ماتوا على رجاء القيامة. فما ذنب من لم تبلغهم الرسالة، وما ذنب من كانت أعمالهم حسنة، وبلغتهم الرسالة مشوهة ومغلوطة ؟!

الحقيقة أنني، وإن كنت لا أجد إجابة عن كل هذه التساؤلات، إلأ أنني لست أشك في رحمة الله ولا في عدله، ولا يمكنني أن أنكر التجسد والفداء. بل إن

رسالة الفداء نفسها هي التي تجلت فيها الرحمة والعدل معاً. ومن ثم فأياً كانت الإجابة فإنها لا تمس عدل الله ولا تنقض رحمته، ولا تقلل من عمل الفداء الكفاري الذي قدمه عن العالم أجمع. ولذلك فإن أفضل جواب على ذلك هو أن مصائر الناس قد جعلها الله في سلطانه. وإذا كنا لا نستطيع أن نحكم في مصير أنفسنا فكيف نحكم في مصير غيرنا؟

والإنسان لا يُدان على جهله بالإلهيات، ولا على الصورة السيئة والمنفرة التي رسمها وقدما له بعض المتكلمين بإسم الله، محرضين على الكراهية والبغضة والإرهاب؛ ولكن يُثاب الانسان أو يُعاب وفقاً لمدى حبه وطاعته لله. وهو أمر بسيط غاية البساطة، وواضح منتهى الوضوح. ولا يحتاج الى تعمق في العلم والبحث والدراسة واللاهوت والفقة والفسلفة والمنطق، واللغة والصرف والنحو والبلاغة، والإجتهادات والفتاوى؛ ولا غير ذلك من الحواجز والتعقيدات التي وضعها المشتغلون بالدين، صارفين الناس عن مقصد الباري ورسالته، وقد إختصرها السيد المسيح في عبارة واضحة، قال فيها:

"كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، إفعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم، لأن هذا هو الناموس والأنبياء"(مت7). وهي عبارة يفهمها المثقف والأُمي، الخفير والوزير، بائع الخضار، وصانع القطار. ومهما بلغت معارفنا النظرية عن الله فلن تتفوق على معرفة الشياطين الذين لا يؤمنون به فقط بل يؤمنون ويقشرعون، "أنت تؤمن أن الله واحد، حسنا تفعل. والشياطين يؤمنون ويقشعرون"(يع2).

ويجدر بي أن أطرح سؤلاً على الذين يكفرون من لا يعتقد عقدهم، ومن لا ينتحل نحلتهم. ما قولكم في شخصين: أحدهما عاش في زمن الفراعنة وتربى على عبادة امون، والتزم بما تعلمه من الدين واجتنب الكذب والزنى وغيرهما من

الموبقات. ومنَّ على المعوزين، وساعد الضعفاء والمقعدين وفقاً لضميره، ولشريعة قومه؛ والآخر نشأ في بيئة مؤمنة وشب على ممارسة الشعائر والطقوس، والظهور بمظر التقوى والورع، وهو من وراء الستار يكذب ويحنث ويزني ويرتشي ويغتال الآمنين. ومات كل منهما على ما هو عليه من أمور دينه. ترى الى أي مصير يذهبان؟ وهنا أضع أمام القارئ إحتمالات ثلاث: الأول: أن كلاهما يهلك، الصالح لأنه مات كافراً، والمؤمن لأنه مات آثماً. والإحتمال الثاني: هو هلاك الوثني الصالح ونجاة المؤمن الطالح. والإحتمال الثالث: هو هلاك المؤمن الطالح، ونجاة الوثني الصالح.

وهنا أترك الاختيار لضميرك، أيها القارئ العزيز، لأنه ليس لنا أن نحكم في الأمور التي جعلها الله في سلطانه، هو وحده الذي يدين الناس ويحدد مصيرهم بناءاً على إيمانهم وأعمالهم. وأعرج بك قليلاً الى مثلٍ حَدَّثَ به السيد المسيح خاصته الحواريين، قال لهم إن إنساناً كان مسافراً. وفي طريقه وثب عليه لصوص فأوسعوه ضرباً، وطرحوه على قارعة الطريق بين حي وميت، فمر به رجل دين يهودي، وآخر من سبط الخدمة، وكلاهما مؤمن بالله وحافظ للناموس، فتركاه بين حي وميت، ولم يمدا إليه يد العون. ثم مر به رجل من السامريين المغضوب عليهم والضالين، فسارع في نجدته، ووضعه على دابته، وسار به الى أقرب فندق، ودفع له مصاريف إقامته. فأيُهم أحسن الصنيع وأرضى الرب بأعماله ؟

وكان الهدف من ذلك المثل هو أن يصحح السيد المسيح ما علق في أذهان اليهود من أنهم شعب الله المختار، وأنهم فقط من سينعمون بحسن الختام، وأن

جهنم أُعدت لباقي الانآم. وهذا المثل يؤكد على أن الإيمان بالله وحده لا ينفع الإنسان الذي لا يعمل الخير مع أخيه الإنسان. ولذلك قال:

"ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار: إذهبوا عني يا ملاعين الى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته. لأني جُعت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقوني، كنت غريباً فلم تأووني، عرياناً فلم تكسوني، مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني. حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك. فيجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا "(مت25).

وإذا كان الهلاك الأبدي هو مصير من لم يفعل الخير، فماذا يكون مصير من يعتدي، ويقتل، وينهب، ويُقصي، ويُذل، ويَستعبد خلق الله ؟!

تُرى من هو الأفضل عند الله ؟ هندوسي يعمل الخير، وآخر مؤمن قتل مئة وعشرين ألف إنسان بريئ بدم بارد ؟ ومات في سجونه المكشوفة ثلاثون ألف إمرأة وخمسون ألف رجل، من البرد والحر والجوع والعطش؟ وكان أكثرهم من أسرى مغازيه وغاراته على خلق الله. وقال فيه الشعبي: لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها، وجئنا نحن به لزدنا عليهم ؟! فهل أن مثل هذا يرث ملكوت السموات لأنه يؤمن بوجود الله ؟!- أترك لكم الإجابة.

ربما يجانبنا الصواب، إذا كنا نعتقد بأن من هم على مذهبنا سوف ينعمون بالجنة، وان كانوا مارقين؛ وأن من ليسوا على مذهبنا، سوف يذهبون الى جهنم، وإن كانوا صالحين. أعتقد أن ذلك لا يوافق عدل الله ورحمته اللذين نطنطن بهما ليل نهار !

في كتابه، (الشيطان والعرش)، قال المؤلف:

"ان المصدر الإخباري الذي قدم تأكيداً قاطعاً بمحتوى اللقاء الاسطوري وأطرافه، كان التوراة التي أوردت إسم النبي سليمان مقروناً بإسم بلقيس. وقد طور الإخباريون اليهود في عصر الإسلام المبكر سلسلة من القصص والمرويات عن هذا اللقاء بما أضفى عليه في النهاية هذا القدر من الخيالية".

وواقع الأمر، أن التوراة التي كتبت قبل مولد سليمان بأكثر من أربعة قرون، لم تذكر زيارة ملكة سبأ التي شغلت سطور قلائل من سفر الملوك الأول. ولم يرد فيها إسم "بلقيس" ولا نسبها المختلط من الإنس والجن الوارد في الرواية العربية والتي قالت بأن أباها "كان أجمل الناس وجهاً، فرأته إمرأة من الجن فعشقته، وهجمت عليه ليلاً في فراشه وقالت له:

أيها الملك إني عشقتك، وليس لي منك بدٌ. وأنا حنفية على دين إبراهيم. وأنا لا أرضى بالزنا، ولا أدين به. وكان إسم الجنية العيوف. وقد ولدت له بعد إقترانه بها ولدين وبنتاً، وهم: ذا الأشرار، وعمر ذا الأذعار، وبلقيس".

أما خبر الزيارة فقد ورد في سفر الملوك الاول، وليس التوراة(أسفار موسى الخمسة) على هذا:

"سمعت ملكة سبأ بخبر سليمان.. فأتت إلى أُورشليم بموكب عظيم جداً، بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة.. فأخبرها سليمان بكل

كلامها لم يكن أمرٌ مخفياً عن الملك لم يخبرها به.. فقالت للملك صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك. ولم أُصدق الأخبار حتى جئتُ وأبصرت عيناي فهوذا النصف لم أُخبَر به. زدتَ حكمة وصلاحاً على الخبر الذي سمعته... فإنصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها"(1مل10).

وانصرفت الملكة الى بلادها؛ ولكنها لم تنصرف عن خيال الإخباريين الذين قالوا بأن سليمان كان في مسير(للغزو)، وإحتاج الجند الى الماء، فسأل عن الهدهد لكي يُدلَه على مصدره. ولكن الهدد كان قد ضل طريقه حتى وصل الى سبأ. وهناك تعرف الى هدهد بلقيس. وتفاخر كل منهما بمولاه، يعدد سلطانه ومآثره. ثم رجع كل منها الى مليكه يحدثه عن مولى الآخر.

ولما وصل الهدد الى سليمان، ذكر له أخبار بلقيس كما سمعها من طائرها. فبعث سليمان اليها برسالة ألقاها الهدهد في حجرها، فقرأتها وأخبرت قومها عن عظمة صاحب الرسالة. ثم قررت أن تزوره بنفسها.

ولما وصلت الى بوابة قصر الحكيم، أُخبِرَ بوصولها، فسأل الذين تحت سلطانه من منهم أن يأتيه بعرشها في أسرع وقت؛ فأحضره له جِنّي في لمح البصر. فلما دخلت بلقيس دُهشت لمَّا رأت سرير ملكها في قصر سليمان. وازداد شغفُها بملك اليهود، فهوته، ثم وقعت في قلبه فهواها؛ ولذلك طلب من الشياطين أن يبنوا له قصراً يجمعهما. فخشيت الشياطين إن هو تزوجها أن ينجب منها ولدا يملك بعده، ويستعبدهم هو الآخر، فتآمروا عليه، وقال بعضهم لبعض:

"ينكحها فتلد له غلاماً، فلا ننفك من العبودية أبداً.. وكانت إمرأة شعراء الساقين؛ فقالت الشياطين إبنوا له بنياناً ليرى ذلك منها فلا يتزوجها".

وبنى له الشياطين قصراً من البلور، فلما كشفت عن ساقيها، رأي سليمان الشعر فأنِفَ منها...

وتستمر القصة في سياقها الدرامي الملائم لأهل زمانه، وبيئته ومكانه، وقد تخللتها خوارق عجيبة. ولم يساور الشكُ الرواةَ في سرد حوار دار بين إنسي وجنية في غرفة النوم، ثم زواج الجنية بالإنسي وإنتاج بلقيس وأخويها. والحوار الذي دار بين الهدهدين، لا يوافق القول بأن الله قد خص سليمان وحده بخاصية الحديث الى الطير. وها هي الهداهد تتحدث الى بعضها البعض، وكل هدهد يتحدث إلى مليكه، بما في ذلك ملكة سبأ الوثنية التي لم تتلقى وحياً، ولم تعرف نبؤة.

وقولهم بإفتقار جيش سليمان الى الماء وإحتياجه الى الهدهد لا يتمشى مع قولهم بأنه "إذا أراد الغزو أمر بعمل بساط من خشب يسع عسكره. ويركبون عليه هم ودوابهم وما يحتاجون إليه. ثمّ أمر الريح فحملته، فسارت في غدوته مسيرة شهر..". فالذي سخَّر له كل ذلك ألم يكن بمقدوره أن يمده بالماء، مثلما حدث مع كليم الله لما ضرب الصخر بالعصا فتدفق منها سلسبيل رقراق؟

وإذا غاب الهدهد، وكل الهداهد فأين الشياطين، وأين الجنيين الذين تحت سلطته؟ وإذا كان جني واحد إستطاع في طرفة عين أن يقطع الآف الأميال ذهاباً وإياباً من شمال الجزيرة الى جنوبها، وأحضر له عرش بلقيس، ألم يكن بمقدوره أن يُحضر له الماء، أو يدله عليه ؟!

وإذا كان الله قد سخر له جند السماء والأرض وأعطاه ملكاً ومالاً لم يأته لأحد غيره، فما الداعي الى الغزو والإغارة على الشعوب المجاورة لمسيرة شهر؟ وكان بالأولى أن يستعمل ما لديه من خوارق في الدعوة لعبادة الله بدلاً من الإغارة على خلق الله. ولم يشر الرواة أنفسهم الى تعرضه لتهديد من قريب أو من بعيد من أي من الممالك المجاورة، بل الملوك كانوا يهابونه ويسارعون في خَطْبْ وده. وإذا كان قد تعرض لعدوان ما، أفلا تسطيع القوات الإنسية والجنية والشيطانية أن تزود عنه وتحمي مملكته ؟!

وقولهم بأن الشياطين كانت تخشى من إنجاب سليمان لولد من بلقيس يستعبدهم مثل أبيه، يبدوا مناقضاً لحديث الإخباريين أنفسهم عن زوجاته وأبنائه. ناهيك عما نسبوه الى ملكة سبأ من الغنى والمال وعدد جندها الذي يفوق الوصف والخيال والذي لم يجد ابن الأثير غضاضة في الطعن في صحته، قال: "وبالغ آخرون مبالغة تدُلُّ على سخف عقولهم وجهلهم، قالوا: كان لها إثنا عشر ألف قَيْل(قائد)، تحت يد كلّ قيل مائة ألف مقاتل، مع كل مقاتل سبعون ألف جيش، في كل جيش سبعون ألف مبارز، ليس فيهم إلأ أبناء خمس وعشرين سنة. وما أظنّ الساعة راوي هذا الكذب الفاحش عَرفَ الحساب حتى يعلمَ مقدار جهله. ولو عرفَ مبلغَ العددِ لأقصر عن إقدامه على هذا القول السخيف، فإن أهل الأرض لا يبلغون جميعهم شبابهم وشيوخهم وصبيانهم ونساؤهم هذا العدد، فيكف أن يكونوا أبناء خمس وعشرين سنة؟! فيا ليت شعري كم يكون غيرهم ممن ليس من أسنانهم(أعمارهم). وكم تكون الرعيّة وأرباب الحِرَف والفلاحة وغير ذلك؟ وإنما الجند بعض أهل البلاد، وإن كان الحاصل من اليمن قد قلّ في

زماننا، فإنّ رقعة أرضه لم تصغر، وهي لا تسع هذا العدد قياماً كلّ واحد إلى جانب الآخر.."[1].

وفضلاً عما أضافته القصة العربية لزيارة ملكة سبأ الى ما جاء بالكتاب المقدس، فقد خالفته كذلك في أشياء كثيرة جداً، لا يتسع المقال لذكرها جميعاً، ومنها قولهم بأن سليمان كان كثير الغزو، وأنه طلب من الله المال والجاه فسخر له من سخر؛ بينما قال الكتاب أن عهده كان عهد سلام ورخاء وعمل وبناء. وأنه سأل الله الحكمة دون الثراء فمنحه إياها مع البركة والنماء. وقالوا أنه كان يخاطب الطير والأشجار؛ بينما قال الكتاب أنه تحدث عنها – وليس معها– في معرض كلامه عن قدرة الله في الطبيعة. وقدم من خلالها الأمثال لموعظة المؤمنين(ام 30 : 4، الحكمة 13: 2، جا11: 4،5).

وقالوا بأن الرياح كانت تنقل له الأخبار؛ بينما قال له في سفر الجامعة:

"لا تسب الملك ولا في فكرك. ولا تسب الغني في مضجعك، لأن طير السماء ينقل الصوت، وذو الجناح يخبر بالامر"(جا10). كناية عن وجود جواسيس ومغرضين ينقلون السباب فتسوء العاقبة.

وقالوا أن سليمان كان له خاتم يرعاه مارد من الجن يحقق له ما يريد. وكان يعهد بهذا الخاتم، في بعض الأحيان، الى إحدى زوجاته وإسمها جرادة. وذات يوم تمثل الشيطان في صورة سليمان وأخذه منها، بينما كان سليمان يغتسل. وصار الشيطان يحكم بين الناس لمدة أربعين يوماً، بينما فقد النبي الحكيم سلطانه وهيبته حتى علم القراء بالأمر، فقرأوا التوراة أمام الشيطان، فطار الى

---

1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ1، ص178.

البحر، فوقع الخاتم منه هناك، فابتلعته سمكة كانت إحدى إثنتين مَنَّ بهما أحد الصيادين على سليمان وهو جائع، فشق بطنهما فوجد خاتمه فأخذه، ولبسه فرد الله عليه بهاءه وملكه.

فالشياطين التي أُخضِعَت له، تتآمر عليه تارة، وتسرق خاتمه الماردي تارة أُخرى. وبعد ذلك، لا نجد غضاضة في التعويل على كل كلام الإخباريين والأخذ به كمُسَلَّمَات، والطعن في صحة الكتاب المقدس، وكأن البشر معصومون عن التأليف، والوحي ليس معصوماً عن التحريف!

عندما طلب موسى النبي أن يرى مجد الله، قال له الرب: "لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش"(خر33). فليس بمقدور الإنسان أن يرى جوهر اللآهوت. وذلك لأن الإنسان محدود والله غير محدود. وبما أن الله خلق الإنسان ليعرفه معرفة حقيقية، فلابد أن يرى الله. ولكي تتحقق هذه الرؤيا، يتعين أحد أمرين: إما أن يصبح الإنسان إلهاً، وهو محال؛ أو أن يُظهر الله نفسه للإنسان إما بطريق التجلي، وإما بطريق التجسد، وكلاهما ممكن، ولا يستحيلان على الله القادر على كل شئ.

ويخلط الكثيرون بين عقيدة المسيحيين في التجسد وبين عقيدة المجسمة في التجسيم. والفارق بين العقيدتين مثل البون البيّن بين السماء والأرض. والفارق بينهما مثل الفارق بين قولنا: "زيد جلباب"، و"زيد يرتدي جلباباً". فالمسيحية لا تقول قول المجسمة "ان الله جسم"، بل تقول أنه تجسد، أي إتخذ جسماً لكي يظهر من خلاله للبشر ولكي يفديهم من خطاياهم. اليس من أسمائه أنه الفادي؟

أما المجسمة فيقولون بأن الله "جسم، لا كالاجسام، وأنه مركب من لحم ودم، لا كاللحوم والدماء. وتجوز عليه الملامسة، والمصافحة، والمعانقة من المخلصين". وقد بنوا معتقدهم على ظاهر الصفات الخبرية الواردة في القران الكريم والآحاديث مثل قوله: "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"(القيامة 22)؛ "الرحمن على العرش استوى"(طه5)؛ "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أيام وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ"(هود7)؛"وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ

ثَمَانِيَةٌ"(الحاقة17)."يوم يُكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون"(القلم 42).

كما إستند المُجَسِّمة الى بعض الأحاديث الصحيحة كما رواها البخاري، ومنها: "فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة..فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثدي"(البخاري3159)."خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ على صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً"(البخاري 5759).

حديث الجنة والنار:"...وأما النار فيلقون فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقون فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع الجبار فيها قدمه. هناك تمتلئ، ويدنوا بعضها الى بعض وتقول قط قط "[1].

حديث النزول: "ينزل ربنا عز وجل كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له ..."(البخاري 9922).

حديث رؤية المؤمنين لله: "عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند النبي، إذ نظر الى القمر ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم –عز وجل- كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته"[2].

وعن أبي سعيد الخدري: "ثم يتبدى الله لنا في صورة غير صورته التي رأيناه فيها أول مرة، فيقول:أيها الناس! لحقت كل أمة بما كانت تعبد، وبقيتم...فيقول:

---

1) ابن خزيمة، التوحيد وإثبات صفات الرب، صـ 207، 208.

2) ابن خزيمة، التوحيد وإثبات صفات الرب، صـ 408.

أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بإلله منك. فيقول: هل بينكم وبين الله آية تعرفونها؟ فنقول: نعم. فيكشف عن ساق، فنخر سجداً أجمعين"[1].

وعن العباس إبن عبد المطلب: "أنه كان جالساً في البطحاء في عصابة(جماعة). ورسول الله(ص) جالس فيهم..ثم قال: فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء الى سماء. ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، ما بين أظلافهن وركبهن، كما بين سماء وسماء. ثم فوق ظهورهن العرش، بين أعلاه وأسفله ما بين سماء الى سماء. والله فوق ذلك"[2].

وإختلف المفسرون في تأويل قوله: "يوم يُكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون"(القلم 42). قال أبو سليمان: "فيحتمل أن يكون معنى قوله يوم يكشف ربنا عن ساقه أي عن قدرته". وقال آخر معناه "التجلي لهم وكشف الحجب"، وقال ثالث أن الله "يكشف لهم عن ساق لبعض المخلوقين من ملائكته أو غيرهم فيجعل ذلك سبباً لبيان ما شاء من حُكمه في أهل الإيمان وأهل النفاق"[3]. ورفضت المعتزلة الأخذ بظاهر النصوص وتأولتها. فقالوا أن معنى قوله: "يوم يكشف عن ساق"، هو: يوم يكشف عن قدرته. وأن معنى إستوى على العرش هو إستولى على العرش.

وأنكر أهل السنة على المعتزلة التأويل، لأن التأويل عندهم، "أمر مظنون، بالإتفاق، والقول في صفات الباري بالظن غير جائز". وقال إبن خزيمة: "فنحن نؤمن بخبر الله–جل وعلا– أن خالقنا مستو على عرشه، لا نُبدِّل كلام الله، ولا

1) ابن خزيمة، التوحيد وإثبات صفات الرب، صـ 377.
2) ابن خزيمة، التوحيد وإثبات صفات الرب، صـ 234، 235.
3) ابو بكر البهقي، الأسماء والصفات، صـ250 – 252.

نقول قولاً غير الذي قيل لنا، كما قالت المعطلة الجهمية أنه إستولى على عرشه، لا إستوى. فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم"[1].

وأيد قوله بالحديث القائل بأن: "حملة العرش أحدهم على صورة إنسان، والثاني على صورة ثور، والثالث على صورة نسر، والرابع على صورة أسد"[2].

وتعقيباً على روايات حديث النزول قال إبن خزيمة: "رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي(ص) في نزول الرب–جل وعلا–الى السماء الدنيا كل ليلة...فنحن مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول، غير مكلفين القول بصفته، أو بصفة الكيفية"[3].

وتعقيبا على كل ما سبق أقول: إذا كان العقل قد وجد تخريجات لتأويل الصفات الجسمية، أوليس حرياً به أن يقبل التجسد، وخاصة أن التجسد ينفي الجسمية عن اللاهوت، ويجعل الاستواء على العرش والنزول الى السماء الدنيا والتصور للمؤمنين في الاخرة أموراً ممكنة ومعقولة يعملها الله في حال تجسده. لأن اللاهوت ليس بجسم ولا تدركه الابصار. وإذا كان قد تجلى لأهل الآخرة دون إستعالة، فلا غرابة من تجسده لأهل الدنيا دون إستحالة.

ولما سُئل الامام مالك عن كيفية الاستواء على العرش أجاب السائل بالقول: "الإستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب". ونحن نقول:

---

1) ابن خزيمة، التوحيد وإثبات صفات الرب، صـ233.

2) ابن خزيمة، التوحيد وإثبات صفات الرب، صـ 207.

3) ابن خزيمة، التوحيد وإثبات صفات الرب، صـ 289، 290.

التجسد ممكن وغير مجهول. والكيف معقول ومقبول. والإيمان به متروك لحرية الإنسان، فلا سدة لمن يعتنقه ولا جلدة لمن يتركه.

والتجسد في المسيحية لا يعني أن اللاهوت إستحال(تحول) ناسوتا–حاشا– ولكنه أتحد به بغير إختلاط ولا إمتزاج ولا تغيير. مثلما تتحد روح الانسان ببدنه، فهي تتحد به دون أن تلتحم بلحمه أو تتعظم بعظمه، أو تختلط بأخلاطه. فما بالك باللاهوت.

وعلى الدعاة الأفاضل الذين يكفرون المسيحيين على عقيدتهم في التجسد، ان يقفوا منها موقف الائمة الكبار من الايات القرانية والاحاديث التي تنسب الجسمية لله، ويقولوا قولهم فيها: "كل من عند ربنا؛ آمنا بظاهره؛ وصدقنا بباطنه؛ ووكلنا علمه إلى الله تعالى؛ ولسنا مكلفين بمعرفة ذلك؛ إذ ليس ذلك من شرائط الإيمان وأركانه".

إن عقيدة التجسد في المسيحية تُبنى أولاً على الإعتقاد في الماهية الروحية غير المدركة لذات الله: "الله روح"(يو4). والا فماذا يكون معنى التجسد إن كان الله جسماً ؟! والنص الكتابي السابق يشير صراحة الى روحانيته، وأنه ليس بجسم.

ولما كان الله غير محدود، ويستحيل على الإنسان المحدود أن يراه. لذلك فكان التجسد هو الوسيلة التي من خلالها التقى البشر بخالقهم في الدنيا كقوله "عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد"(1تي3). "الكلمة صار جسداً وحل بيننا"(يو1).

وقد سبق وتجلى لموسى النبي في هيئة نارية كما ورد في التوراة: "ناداه الله من وسط العليقة وقال: موسى موسى. فقال: هانذا. فقال: لا تقترب الى ههنا إخلع حذائك من رجليك لأن الموضع الذي انت واقف عليه أرض مقدسة "(خر3).

وصدق القران الكريم على ذلك بقوله: "إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أو أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى" (طه10–12).

وكلمة الله الذي تجسد ليس هو لفظة نطق بها الله، بل هو علمه الذاتي كقوله "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله"(يو1). وعلم الله صفة ذاتية كما قال المتكلمون. وحتى إذا وقفنا عند حد أن المسيح هو كلمة من كلام الله، فهل كان كلام الله مخلوقاً أم أنه أزلي ؟ إذا كان مخلوقاً لأفضى ذلك الى أن تكون ذاته تعالى محلاً للحوادث، وهو محال. ولو كان كذلك لما كان إلهاً– حاشا.

والحقيقة التي نخلص بها، أنه مهما إختلفت المعتقدات والتصورات عن الله، فإنها لا تغير من طبيعته. وهو تعالى لا يحاسبنا عن قصور عقولنا في فهم ذاته؛ ولكنه سوف يجازينا عن حسن أو سوء أعمالنا: عن الشر الذي أتيناه، وعن الخير الذي منعناه. إذن فليعتقد كل إنسان ما يعتقد، على شرط ألا يتخذ من الأمر وسيلة للإستعلاء والتحقير، وللتحريض والتكفير، وللإقصاء والتصغير. وليكن الحوار والإقناع هو السبيل الى معرفة الحق.

وقبل أن أنهي الكلام في هذا الموضوع، أود الاجابة عن بعض الاسئلة التي يطرحها البعض:

سؤال: كيف يحل الله غير المحدود في الناسوت المحدود؟

نقول: ان طبيعة الله غير مادية، وان السؤال نفسه ينبئ عن التصور المادي لله. فكانك تتصور ان الله –تعالت قدرته– عبارة عن كائن ذي جسم كبير يتعذر دخوله في كائن ذي جسم صغير. ومع ذلك فإنك اذا وضعت اناءا في محيط، فإنه يمتلئ بمائه دون ان يستغرقه. فكيف تظن ان الناسوت استغرق اللاهوت وقام بحده ؟!–مع فارق المقارنة بين الخالق الروحاني، وبين المخلوقات المادية.

فعليك اولا ان تحرر عقلك من هذا التصور المادي عن الله. وان تعلم ان طبيعة الله مجهولة، ولا يستطيع الانسان المحدود ان يراه، الا بأحد طريقين: اما التجلي او التجسد. وحيث ان الله كلي القدرة، فهو قادر على ان يتجسد حتى وان عجزت عقولنا عن ادراك كنه التجسد وكيفيته.

واذا كنت لا تدرك كيفية اتحاد الروح بالبدن، ولا كيفية الاستواء على العرش، فانى لك ان تدرك كيفية اتحاد كلمة الله بالناسوت؟ وان سؤالك يذكرني بجواب الغزالي على الزمخشري في الاستواء على العرش، قال:

أنتَ لا تَعرِف إيَّاكَ ولاَ ... تَدري مَن أنتَ وَلاَ كَيفَ الوُصُولُ

لاَ وَلاَ تَدري صِفَات رُكِّبَت ... فِيكَ حَارَت فِي خَفَايَاها العُقُولُ

أين مِنك الرُّوحُ في جَوهَرِهَا ... هَل تَرَاهَا فَتَرَى كَيفَ تجولُ

فَإذَا كانَت طَوَايَاكَ الَّتي ... بَينَ جَنبَيكَ كَذَا فِيهَا ضَلُولُ

فكَيفَ تَدري مَن عَلَى العَرشِ استوى ... لاَ تَقُل كَيفَ استَوَى كَيفَ النُّزُولُ

سؤال: اذا كان المسيح هو الله، فكيف يجوع ويعطش ويصلب ويموت، وكيف نعبد من تقع عليه هذه الاعراض ؟

ان اتحاد اللاهوت بالناسوت لا يعني انه اصبح ناسوتا، ولا ان الناسوت اصبح لاهوتا، على الرغم من اتحاد الطبيعتين في طبيعة واحدة. كما ان روح الانسان عندما تتحد بالجسد فانها لا تختلط به؛ فلا تتعظم بعظمه ولا تتلحم بلحمه؛ ولكنها تظل روحانية الطبع رغم اتحادها بالبدن. والبدن يظل هيولي الطبع رغم اتحاده بالروح.

ولما اتحد الناسوت باللاهوت، اكتسب كرامة اللاهوت، كما ان جسد الانسان عندما يتحد بروحه يكتسب كرامتها ويحيا بها. ولذلك نحن لا نفصل الطبيعتين من بعد الاتحاد، ولا نخاطب كل طبيعة منهما على حدة بل نخاطب طبيعة واحدة، مسيحا واحدا. وعندما نقول في القداس "بموتك يا رب نبشر، وبقيامة المقدسة وبصعودك الى السموات نعترف"، نكون على وعي بأن اللاهوت لا يموت، وان الموت وقع في الناسوت–والى حين–وذلك بانفصال جسد المسيح عن نفسه الانسانية، بينما لاهوته ظل متحدا بالنفس والجسد، ولم يفارقهما لحظة واحدة ولا طرفة عين. ولذلك نقول: "قدوس الحي الذي لا يموت الذي صلب عنا"، أي بناسوته. وعندما نقول عن الشهيد أنه ضحى بروحه من أجل الوطن، هو ضحى بجسده، أما روحه فلم تمت بموت الجسد ولم تهلك بهلاكه ولم تتحلل بتحلله، وإنما صعدت الى الفردوس الاعلى معززة مكرمة.

وفي شخص السيد المسيح–له كل المجد– نميز بين خصائص الطبيعتين؛ على الرغم من الاتحاد، ولا نفصل بينهما على الرغم من الاختلاف. مثلما ندرك الفارق بين جسد زيد وروحه على الرغم من انه انسان واحد. وعندما يجوع زيد او يعطش فاننا نعلم ان روحه لا تجوع ولا تعطش ولا تتأثر بأي

عرض من اعراض الجسد: فلا تمرض ولا تموت ولا تتحلل ولا تفنى. واذا كان الامر هكذا بالنسبة الى الانسان، فما بالك باتحاد كلمة الله بالناسوت !

والانسان العادي اذا صلب ومات، فان الآم الصلب تقع على الجسد ولا تطال الروح. كما قال السيد المسيح: " لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، ولكن النفس لا يقدرون ان يقتلوها"(مت10). فعندما يموت الانسان تنفصل نفسه عن جسده، وتصعد الى باريها، واذا كانت روح الانسان لا تصلب ولا تموت، فهل تعتقد ان اللاهوت يصلب ويموت ؟!

سؤال: كيف يحل الله في احشاء مريم حيث الدماء والنجاسة ؟

ان الله هو من خلق جسد المراة وقدر خصائصه. وهو لا يخلق شيئا نجسا. وان ما تراه نجسا منها، جعله الله بقدرته بيئة صالحة لنمو الجنين، يعيش فيه تسعة اشهر. ويخلق الله روح الجنين وهو في بطن امه، ولا تختلط باللحم ولا بالدماء، لكنها تظل لطيفة الطبع. واذا كانت قطرات الزيت لا تختلط بالماء، واذا كانت اشعة الشمس تسقط على الحمأة ولا تتسخ بها بل تطهرها. واذا كانت روح الجنين لا تتأثر بدماء الام، فهل يتأثر اللاهوت ؟!

كيف تقولون عن العذراء انها ام الله ؟

عندما تتحد الروح الانسانية ببدن الجنين في رحم الام، ثم تلده، لا نسميها ام جسم زيد، بل ام زيد بروحه وبجسمه، وذلك على الرغم من ان روح زيد ليست من بدن امه بل من لدن الهه. ومن ثم فان قولنا عن العذراء انها ام الله، لا يعني انها خلقت اللاهوت–حاشا. فكما ان ام زيد لم تخلق روح زيد، ودعيت امه، كذلك العذراء مريم لم تخلق لاهوت الكلمة، ودعيت امه؛

وذلك للتأكيد على ان المولود منها هو كلمة الله المتجسد. وكما انه تعالى موجود في سماء وهو خالقها، وانه استوى على عرش، وهو خالقه؛ فلا مندوحة من ان يتدرع بالجسد وهو خالقه، ويولد من العذراء وهو خالقها. وكما انك تعتقد بأن كلام الله النفسي القديم(الازلي) نقش في الصحف الحادثة، دون ان تحد كلامه القديم، كذلك حل الاله(الازلي) في بطن العذراء دون ان تحده او تحصره.

خلق الله آدم من تراب الأرض، وأسكنه جنة الخلد، ولم يشأ ان يكون وحده بالخلاء فقَدَّ(قطع) من جنبه حواء، "وأوصى الرب الاله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. واما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لانك يوم تأكل منها موتاً تموت..فقالت الحية للمراة لن تموتا.. فأخذت(حواء) من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل. فإنفتحت اعينهما وعلما انهما عريانان فخاطا اوراق تين وصنعا لانفسهما مازر.. فنادى الرب الاله ادم وقال له اين ان..فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لاني عريان فاختبات.. فقال الرب الاله للحية لانك فعلت هذا..على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك.. واضع عداوة بينك وبين المراة.. وقال للمراة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولادا.. وقال لادم..بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود الى الأرض التي اخذت منها لانك تراب والى تراب تعود"(تك3).

وصدق القران الكريم على ما أُنزل على موسى بما جاء بسورة الاعراف قوله: "وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أو تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ..فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ..قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ"(الاعراف19- 25).

ووفقاً للنص التوراتي، كان الطرد من الجنة أحد تداعيات المعصية؛ لكن حكم المخالفة، كان الموت. والله لا يغير حكمه، فلا يتوعد آدم بالموت في حال المعصية، ثم يغير قضاءه ويكتفي فقط بطرده من الجنة! لأن قضاءه مبرم وواجب النفاذ. ولو كان الله قد عفى عنه وسامحه لكان قد أبقاه في الجنة ولما كان قد طرده منها، ولما إكتنف البشرية كل هذا العناء والبلاء وسفك الدماء.

وعندما خالف الإنسان أمر الله، مات روحياً وأدبياً بإنفصاله عنه. وفقد النعمة التي كانت تربطه بخالقه. ودبت فيه مظاهر الموت، مثله في ذلك مثل الشجرة التي ينقطع عنها الماء فتذبل وتجف وتموت بعد حين.

ولم يكن آدم يحيا سعيداً في الجنة لأنه كان يأكل ما طاب له من ثمارها، ويشرب من صفي أنهارها؛ بل لأنه كان يتقوت بمحضر الله، ويرتوي بنعمته، ويكتسي ببره. وها هو الآن أمسى مطروداً من محضر العزة الالهية.

ولكن الله رحيم ومطلق الرحمة، فكيف لا يعفو عن آدم ؟

لا يعفو عنه لأنه مطلق العدل والحق. وقد سبق وحذره: ان خالفت ستموت؛ فإن مات آدم وجرى فيه حق العدل، إنتفى حق الرحمة؛ وإن عفى عنه وتركه، إنتفى حق العدل؛ وحاشا لله ان ينقص من عدله ومن رحمته شئ. إذن فما هو الحل ؟ وللإجابة على هذا السؤال، نعرج قليلاً الى قصة ابراهيم.

في أضحية ابراهيم، قال له الرب: "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق وإذهب الى أرض المُريا واصعده هناك محرقة "(تك22).

فأطاع ابراهيم الله، وربط وحيده الذي أتاه بوعد بعد كبر، وهَمَّ يذبحه؛ لكن أتاه صوت من السماء يقول له: "لا تمد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئاً.. فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه"(تك22).

ولم يكن أمر الله لابراهيم بذبح ابنه لإمتحانه فقط، وإلا لما كان هناك داع لذبح الكبش عوضاً عنه. ولكن كان للحدث دلالة اخرى. ولم يكن ابراهيم هو أول من ذبح أُضحية، فعندما عصى آدم وحواء الرب، وتعريا من البر، وشعرا بعري الجسد، ان الله البسهما أقمصة من جلد الحيوان، أي انه علمه ان ذبح الحيوان للتكفير عن الإثم.

وظل هذا التقليد سارياً منذ ذلك الحين، ففعله هابيل، ونوح وملكي صادق وابراهيم وباقي الأنبياء. وإنتشرت شعيرة الأضاحي عند شعوب العالم القديم حتى لدى الذين انصرفوا الى عبادة الأصنام.

ووفقاً للشريعة الموسوية، كان على المُضحي أن يضع يده على رأس الضحية ويقر بذنبه، فينتقل الإثم رمزياً الى الأضحية التي يُنفذ فيها حكم الموت عوضاً عن الإنسان. وكأن الأضحية حملت ذنب المضحي بها، فتتحق الرحمة وينجو الإنسان، ويتحقق العدل وتموت الأضحية. لأن أجرة الخطيئة هي موت(رو6).

ولكن هل يتحقق العدل حقاً عندما يموت الحيوان عوضاً عن الإنسان؟ فالحيوان أدنى منه مرتبة، والعدل يقتضي أن يكون المُضَحَّىَ به مساوياً للمُضَحَّىَ عنه أو أعلى منه، وأن يكون خالياً من الإثم، وغير واقع تحت حكم الموت، ويملك نفسه ويستغرق غيره.

وإذا كان الأمر هكذا فلماذا أمر الله موسى النبي أن يقرب الكباش، إذا لم تكن كافية لفداء الإنسان ؟ وبخاصة أن الله ليس إلهاً دموياً، فلا يستطيب ذبح الحيوان؛ ولا يرتشي بصك غفران؛ لكن الإنسان هو الذي جلب على نفسه حكم الموت، ولابد أن يجرى عليه العدل، وينفذ فيه الحكم.

ولم يكن تقريب الحيوان كافياً لفداء الإنسان، بيد انه كان رمزا للفداء الكفاري الذي قدمه السيد المسيح بموته، ذلك هو الذبح العظيم الذي تجسد لإتمام الفداء الكفاري عن العالم أجمع. ولم يكن يصلح له أحد غيره. وهو ما يفسر لنا لماذا اختلف السيد المسيح عن البشر والرسل والأنبياء في أشياء جوهرية وخطيرة: فهو وحده الذي ولد من عذراء تم اصطفاؤها ورفعها فوق نساء العالمين. وربما يقول قائل أن آدم لم يولد من زرع بشر؛ ولكن آدم كان أول البشر فلم تكن هناك وسيلة لايجاده غير الخلق. أما ولادة المسيح فكانت كسراً للقانون الطبيعي الذي كان سارياً في كل بني آدم. وهو الوحيد الخالي من الإثم. وهو الوحيد الذي مات، وقام، وأقام الاموات بسلطانه وبارادته. وهو الوحيد الذي سياتي يوم الدين ديانا للعالمين. وهو الوحيد الذي وصف بأنه "كلمة الله "(يو1). وكلمة الله ليس لفظة من ألفاظ الوحي ولكنه علم الله الذاتي. وعلم الله ليس ادنى من ذاته، ولم يمضي على ذاته وقت كان بغير علمه وبدون روحه. وإذا كان المسيح–من جهة ناسوته– قد قام بدور الرسول والنبي لأنه أنبأ بالغيبيات، وأبلغ ببهي الرسالات، لكنه من جهة لاهوته هو كلمة الله الذي تجسد (تمثل بشرا) في ملء الزمان لفداء الإنسان؛ فقدم للبشرية فداءاً ابدياً، "ليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه"(عب9). "لانه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا"(رو5).

"ثم قام من الموت وأقامنا معه وأجلسنا في السماويات(اف 2). حيث يوجد "ما لم تر عين ولم تسمع إذن ولم يخطر على بال إنسان ما اعده الله للذين يحبونه"(1كو2).

ويقول قائل: كيف يموت الاله على الصليب؟

أقول: إن الله لا يموت. بل إن روح الإنسان نفسها خالدة لا تموت، لأنه عند موت الإنسان، تنفصل روحه عن جسده، ويتحلل الجسد؛ بينما تخلد الروح. وحتى الجسد الذي مات سوف يبعث من جديد في صورة نورانية. ومن ثم فإذا كانت روح الإنسان لا تموت فهل يُعقل أن يموت الاله؟ كلا وحشا! إذن فما معنى موت المسيح الاله المتجسد ؟ معناه أن روح المسيح الإنسانية إنفصلت عن جسده لمدة معلومة وأما لاهوت الكلمة فلم ينفصل قط، لا عن نفسه، ولا عن جسده. هذا إعتقادنا نحن المسيحيون. اما كيفية ذلك فهي عالية على افهامنا.



اختلف المتكلمون حول صفات الله، وذهبوا فيها مذاهب، وإفترقوا الى فرق: فريق وقف منها موقف "اللآ–ادري"؛ ورفض تأويل الصفات والنظر في امرها، لأن التأويل عندهم أمر مظنون. والقول في صفات الباري بالظن غير جائز.

والفريق الثاني، ويمثله المعتزلة، ومنهم واصل ابن عطاء، وابو الهزيل العلاف، وابو هاشم الجبائي وآخرون؛ وقد نفوا الصفات، ولهذا وصفهم الصفاتية بالمعطلة. وقدم المعتزلة ادلة غير مقنعة لتبرير مذهبهم، تصل الى حد التناقض. ونسب لهم الشهرستاني قولهم: "عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته هو، لا بعلم وقدرة وحياة".

لقد تصوروا أن قدم الصفات يقتضي تعدد القدماء، وكأن كل صفة قديمة (ازلية) تعني إلهاً مستقلاً بذاته، ومن ثم تصبح الصفات مجموعة من الالهة، وعلى حد قولهم "لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية". وعلى حد قل واصل ابن عطاء أن من أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين. وهذا غير صحيح لأنه قياس بالماديات، وان الله فوق الماديات والماهيات. بل ان الإنسان نفسه يحمل في ذاته مجموعة من الصفات المختلفة. فيجتمع عنده السمع والكلام والرؤية والتعقل والاحساس، وعلى إختلافها، فهي تجتمع في إنسان واحد. فإذا جاز أن تجتمع الصفات في الإنسان الواحد، فكيف لا تجتمع الصفات الالهية في الجوهر الالهي الواحد؛ وان كان على نحو غير مدرك بالنسبة لنا، طالما أن الوحي قد صرح بها.

وقد قاد المتكلمين الى نفي الصفات امران: الأول انهم غالوا في التنزيه الى حد تجريد ذات الباري من كل صفة مما يفضي الى القول بانه تعالى ليس بشئ !. والثاني أن تصورهم في نسبة صفات الله الى ذاته لم يزد عن تصور نسبة الصفات الى ذات العباد. وهو ما دعاهم الى نفي صفتي العلم والارادة عن الله لأنهم تصوروا "ان تعلق الارادة القديمة بالمحدث بعد أن لم تكن متعلقة به يؤدي الى التغير في ذات الواجب "، وان "الارادة شوق الى التمام لحدوث النقصان في ذات المريد" .

ولكن فاتهم أن الارادة عند الله ليست كذلك بالنسبة للإنسان. لأن ارادة الإنسان تستوجب الحاجة والإفتقار الى الأشياء والذوات الاخرى. فما يريده المرء، يحصل عليه من خارج ذاته. كما أن ارادته متغيرة بالضرورة، فحاله وهو جائع ليس كحاله بعد تناول الطعام، وحاله وهو جاهل بالشئ ليس كحاله وهو عالم به. اما الارادة عند الله فليست كذلك على الاطلاق. الله يريد بارادة مطلقة. لأنه لا يفتقر الى شئ، ولا يحصل على ما يريده من خارج ذاته. هو يفعل ما يريد، ويريد ما يفعل.

وما يقال عن الارادة، يقال عن صفة العلم الالهي، التي نفاها المتكلمون دفعاً لشبهة التغير في ذات الله، قياساً بعلم الإنسان. ولكن علم الله ليس كعلم الإنسان، الإنسان يعلم (يتعلم) الأشياء بعد جهل بها، ولكن الله يعلم كل شئ قبل أن يخلق ذلك الشئ. وهو يخلق ما يعلم، ويعلم ما يخلق. وعلى حد تعبير القديس اغسطينوس: "الأشياء توجد لأن الله يعلمها، ولا يعلمها الله لأنها توجد".

إذا فإن معنى الارادة والعلم وغيرهما من الصفات عند الخالق تختلف تماما عن معناها عند المخلوق.

وعلى ذلك فإن نفي الصفات يترتب عليه امران: اما أن الله بلا صفة وهو ما يناقض المنقول، أو أن هذه الصفات حادثة، وبالتالي تكون ذات الله محلا للحوادث وهو محال ايضا. وعلى ذلك فالاقرب الى العقل هو أن تكون صفاته قديمة بقدمه أي ازلية بازليته، حتى وان كان العقل يعجز عن فهم نسبة الصفات الى الذات.

ويعتبر افلاطون[1] وأرسطو اقدم من غالا في تنزيه واجب الوجود الى حد التجريد، عندما نفيا عنه الماهية (ما هو)، لأن الماهية عندهما، تقتضي الحد(التعريف)، وحيث أن الواحد لا يحد فهو إذن بلا ماهية. ونفيا عنه الجوهر، لأن الجواهر تقتضي حمل الاعراض، والواحد منزه عن الاعراض.

ووجد المتكلمون في هذا التصور ضالتهم، فانتحلوه مجردين ذات الباري من كل شئ حتى من صفاته الذاتية التي قال بها النقل. لكن طبيعة الله مجهولة لنا، وليست من جملة ما يخضع للنظر العقلي. لأنه تعالى كائن، ذو كينونة فريدة.

---

1) في وصفه للواحد الميتافيزيقي يقول افلاطون نقلا عن بارمنيدس في المحاورة المسماة باسمه: "اذا كان يلزم ان يكون الواحد واحدا فلن يكون كلا ولن يكون حاصلا على اجزاء.. واذن فالواحد بما انه لا بداية له ولا نهاية فهو لا محدود .. وما دام الواحد على هذا النحو فهو لن يكون في أي مكان لانه لا يمكن ان يكون في غيره ولا في ذاته .. لانه لو كان في غيره لكان محاطا دائريا بما يكون فيه، ولكان له معه تماس من نقاط كثيرة .. ولو كان في ذاته فقط لكان كذلك محاطا لا بشئ سوى ذاته بما انه في ذاته فحسب، لانه من المستحيل ان يكون الشئ في شئ ما دون ان يكون محاطا به .. ومن ثم فإن الحاوي شئ والمحوي شئ آخر، فالشئ ذاته لا يمكن ان يكون برمته ما يقوم بالفعل والإنفعال في آن معا والا فإن الواحد لن يعود واحدا بل اثنين .. واذن فالواحد ليس في أي مكان لا في ذاته ولا في غير ذاته".

وطبيعته التي لا ندركها لا تقتضي الحد، وجوهره فريد لا يستلزم حمل اعراض. وهو متعالي عن الوجود، وفوق الماهيات والجواهر والحدود.

واما الصفاتية، فلم يجردوا الله من صفاته الذاتية كالعلم والحياة؛ ولا من صفاته الخبرية كاليدين والوجه. وما كانوا ليفرقوا بين صفات الذات وصفات الفعل بل يسوقون الكلام سوقا واحداً. وفي كتابه:(الأسماء والصفات) عرض الامام ابو بكر البيهقي ما نسبه المتكلمون لله من الصفات وهي عندهم ثلاثة اقسام:

الأول: يشمل صفات الذات، وهي عندهم قديمة(ازلية)، مثل الوجود والعلم والقدرة والحياة. وقد عبر البيهقي عن ذلك بقوله:

"إذا ثبت كونه موجودا فوصف بانه حي فقد وصف بزيادة صفة على الذات هي الحياة. فإذا وصف بانه قادر، فقد وصف بزيادة صفة هي القدرة، فإذا وصف بانه عالم فقد وصف بزيادة صفة هي العلم..إذ لولا هذه المعاني لاقتصر في اسمائه على ما ينبئ عن وجود الذات فقط"[1].

ومع اقرارهم بقدم الصفات إلأ انهم يفرقون بينها وبين الذات؛ بل ويعتبرها زائدة عليها، كأن الله كائن، وصفاته كائنات أُخرى أو اعراض لتلك الذات.

وهذا التصور الهيولي للذات الالهية هو ما ادى الى انكار الصفات الاقنومية التي نادت بها المسيحية، فمن ناحية لأنها ازلية، ويرون في ازليتها تعدد القدماء. ومن ناحية أُخرى لأنهم ينظرون اليها بإعتبارها اعراض للذات. ولكن المسيحيين لا يعتبرون الاقانيم صفات زائدة على الذات، ولا أنها جواهر مختلفة بل في جوهر واحد متحدة على نحو يفوق عقولنا.

---

1) البيهقي، الأسماء والصفات، صـ 84.

والقسم الثاني: صفات الفعل، وهي حادثة عند بعضهم. وعلى حد تعبير البيهقي: "استحقها(الله) فيما لا يزال دون الازل". ومنها صفتا الخلق والسمع.

والذي دعاهم الى انكار الازلية على صفات الفعل هو إعتقادهم بأن الاقرار بازلية الفعل يعني الاقرار بازلية المفعول به. فإذا كان الله خالقا منذ الازل فإن ذلك–على حد فهمهم– يقتضي أن تكون المخلوقات ازلية. وهذا–على حد قولي– بين البطلان، لأن الخلق في حد ذاته ينفي الازلية عن الشئ المخلوق. ولذلك لابد أن نفرق بين كون الله قادر على الخلق منذ الازل، وبين خلقه للعالم في الزمان.

وهنا يقول المتكلمون: انه لو كانت صفة الخلق ازلية فهذا يفضي الى أحد امرين اما أن يكون المخلوق ازلي، أو أن تكون صفة الخلق عاطلة في الازل قبل أن تفعل في الخليقة. وفي ذلك التصور مخاطرة وغلوا كبيرين من جهة العقل، اديا الى القول بأزلية العالم كوسيلة للخروج من ذلك المأذق. وهو ما عبر عن ابن سينا بقوله:

"ان القول بقدم العالم يلتئم مع كون الله تام الفاعلية من الازل؛ اما القول بالحدوث، فيستلزم التعطيل على ذات الباري، وانه غير تام الفاعلية من الازل".

على أن السبب الحقيقي الذي أفضى بالعقل الى التهافت في الكلام على ذات الله أن المتكلمين ارتكنوا الى التنزيه التجريدي لذاته تعالى تأثراً بما قاله الفلاسفة عن الواحد الميتافيزيقي. فجردوا الله من كل صفة فاصبح–وفقا لتصورهم– اشبه بالفكرة التي لا توجد إلأ في العقل فقط، مثل فكرة العدل أو الرحمة أو النظرية العلمية أو المسالة الرياضية. ولكن المنطق السليم لا يمكنه أن يتصور أن يكون الله بلا كيان أو يكون كائنا جامدا مصمتا؛ لكنه كائن حي عاقل ديناميكي. وأن

الاقرار بالصفات الذاتية لله، والتي يسميها اللآهوتيون بالاقانيم، هي السبيل الوحيد لحل شبهة التعطيل وغيرها من الشبهات التي اثارها المتفلسفون والمستعقلون. ألم يطلب السيد المسيح في مناجاته للاب أن يكون عند المؤمنين الحب "الذي احببتني به قبل انشاء العالم". وهذا يدل على ازلية صفات الله الذاتية والفعلية. فكانت صفة الحب الالهي عاملة بين الاقانيم التي للاله الواحد في الازل، ولما خلق الخليقة امتد عملها الى البشر. ومن ثم فلم تكن هذه الصفة–وغيرها–عاطلة في الازل ولم تكن المخلوقات ازلية. أي انتفاء التعطيل عند الفاعل، وانتفاء الازلية في المفعول به.

وفي الوقت الذي يستنكر فيه الائمة الأفاضل قول المسيحيين بالاقانيم، نجدهم يثبتون لله الصفات الذاتية والخبرية(الجسمية) معاً لورود الخبر بها في القرآن الكريم. وأهل السنة يقبلونها كما هي دون تأويل؛ وأما المعتزلة والاشاعرة فيتأولونها.

القسم الثالث: ويشمل الصفات الجسمية، ويسمونها الخبرية، كالوجه واليد والقدم والساق، والاستواء على العرش. وقد افرد لها البيهقي كتابه: (الأسماء والصفات). كما افرد لها محمد ابن اسحق ابن خزيمة كتابه:(التوحيد وإثبات صفات الرب).

يقول البيهقي: "ومنه ما طريق إثباته ورود الخبر الصادق به فقط كالوجه واليدين والعين في صفات ذاته، وكالاستواء على العرش والاتيان والمجئ والنزول ونحو ذلك من صفات فعله؛ فثبتت هذه الصفات لورود الخبر بها على وجه لا يوجب التشبيه".

والمسيحيون يعتقدون أيضاً في الاقانيم لورود الخبر بها على نحو لا ينفي الوحدانية ولا يوجب تعدد ذوات.

وفي الوقت الذي بستنكرون فيه على المسيحيين قولهم بأزلية كلمة الله الذي اتخذ له من العذراء ناسوتا في ملء الزمان، نجدهم يقولون بقدم كلام الله، فيقول ابو الحسن الأشعري عن كلام الله انه "قديم قائم به صفة له".

وخلاصة القول أن ذات الله تفوق قدرات العقل البشري المحدود. ولو شاء الله أن يظهرها لنا بشكل جلي لا يحتاج الى تفسير أو تأويل، لفعل. ولكن هذه حكمته، وتلك ارادته.

وانه من العبث أن يكون إختلافنا في فهم صفاته، وعجز عقولنا عن إدراك ذاته، مدعاة الى التكفير والتحقير والتقتيل. لأن ذلك لا يغير من طبيعته. والأجدر بنا أن نترك الجدل فيما يفوق عقولنا بشأن طبيته وصفاته الذاتية؛ ونكتفي بتصديق ما أعلنه لنا عن ذاته وعن مجمل صفاته. وأن ننتهي عن أعمال التي نهانا عنها، ونجد في أعمال الخير التي أمرنا بها وهي جلية البيان، لا تحتاج الى نظر وتأويل وبحث وفحص وتحليل. وقد أوجزها السيد المسيح في عبارة واضحة: "فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، إفعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم لأن هذا هو الناموس والأنبياء"(مت7).

وليس لأحد من الناس فضل في معرفة الله، فهو الذي خلقنا وعرفنا بذاته، بل إن معرفته لا تُخفى حتى عن الملائكة الذين تكبروا وتشيطنوا مثل إبليس، فإنهم يؤمنون بالله ويقشعرون، كما يقول القديس يعقوب:

"أنت تؤمن أن الله واحد، حسنا تفعل، والشياطين يؤمنون ويقشعرون"(يع2). فالشياطين يعرفون الله حق معرفة، على الرغم من أنهم يشككون الناس في

وجوده، ويضللوهم بالشرك وبعبادة البشر، ويوعزوا إليهم بالكراهية والعنصرية بإسم الله، والقتل بإسم الله، والعدوان بإسم الله، والهدم بإسم الله، والتمييز والإقصاء بإسم الله، والكيل بمكيالين بإسم الله، والإهانة والتحقير بإسم الله، وإباحة الدماء بإسم الله.

المعرفة عن الله شئ، والإيمان به شئ آخر. الاستدلال على وجوده من خلال الموجودات، كما إستدلت الفلاسفة على وجوده من خلال براهين (المحرك الأول)، و(العلة الأولى الفاعلة)، و(الممكن والواجب)، هي معرفة عن الله. وهي تختلف عن إعلان الله عن ذاته لاصفيائه من خلال الوحي والإيمان. تلك التجربة التي عاشها الأنبياء والقديسون الذين التقوه بأرواحهم وعقولهم ووجدانهم وكل كيانهم. ومعرفتهم به هي إعلان الهي يفوق المعرفة العقلية الاستدلالية التي بلغها الفلاسفة بالعقل.

والفارق بين المعرفة عن الله، وبين معرفة الله أو الإيمان به هو مثل الفارق–مع الفارق–بين من سمع عن وجود ثمرة لذيذة الطعم، ولكنه لم يراها في حياته؛ وبين من تذوق تلك الثمرة وعرف طعمها وإختبر حلاوتها.

وعندما إستحدث الفلاسفة أفكارهم وصاغوا نظرياتهم الوجودية والميتافيزيقية، فانهم إستعملوا لأجل صياغتها الألفاظ التي كانت شائعة في زمانهم، وقد أكسبوها معاني جديدة غير المعاني البديهية المعروفة. وكذلك فعل الرسل والأنبياء، والشعراء والادباء، والباحثون والعلماء على مر العصور، فقد إستعمل كل منهم لغة زمانه وصاغ المعاني بمفردات عصره واوانه، مضيفاً لبعض الكلمات معاني جديدة.

وتظل هذه المعاني الجديدة بعيدة عن فهم من لا يعرف مدولها في سياق عصرها. ولهذا تحتاج النصوص الى تفاسير وشروحات تجلي المعاني وتظهر

الخفيات. كما يقول القديس بطرس السدمنتي: "إن النصوص كالكنوز المخفية، والتفاسير كالجواهر المرئية".

ولا يقف التفسير عند معرفة المعنى الفيلولوجي للكلمات. ولابد من معرفة ما لتلك الكلمات من دلالات منبثقة عن ثقافة الناس في تلك العهود المنصرمة، وعن المدلولات الجديدة التي أُضيفت اليها. فكثيراً ما تستعصي علينا مدلولات الألفاظ والكلمات والجمل والعبارات والأشعار والنثريات، حتى وإن لم نقتطعها من سياق عصرها. ويظل المعنى الحقيقي لها كامناً في عقل الفيلسوف، ومستتراً في وجدان الشاعر، ومحجوباً في عالم الغيب. ولما كان الحال كذلك فيما يتعلق بالمعاني والمدلولات العقلية والطبيعية والوجدانية، فماذا يكون الأمر اذا إستعملت تلك المفردات للتعبير عن الإلهيات؟ لابد أنها تكتسب معاني أعمق وأبعد من مدلولها البشري.

وعندما أقبل السريان المستعربون على ترجمة التراث اليوناني الى العربية، في القرن الثامن للميلاد، إنتقلت ألفاظ ومصطلحات كثيرة الى العربية، كما إكتسبت بعض الألفاظ معاني أُخرى جديدة غير معانيها القديمة المعروفة مثل"جوهر"، و"عَرَضْ"، و"وعلة" و"معلول"، و"ماهيِّة"، و"هيولي"، "لوغوس"...الخ.

ومن كلمة لوغوس" λογος " اليونانية، دخلت كلمة "لغة" الى اللسان العربي. فالعرب الأوائل كانوا يسمون اللغة لساناً، فيقولون "لسان العرب"، أي لغة العرب. ومن اللوجوس أيضاً، عرفت اللغات الأوربية كلمة "logique" أي المنطق.

وإذا ابتعدنا قليلاً عن المعنى الاصطلاحي، ونظرنا الى المفهوم الفلسفي الايدولوجي لـ "اللوغوس"، كما تصوره فلاسفة الإغريق، مثل هيراقليطس وأفلاطون، نجد أن اللوجوس عندهم هو العقل الوسيط الذي خلقه المبدأ

الأول(الله) لكي يخلق به العالم المادي، لأن المبدأ الأول – في رأي افلاطون– هو خير محض، ووجود محض، ولا يمكنه الإتصال بالعالم المادي إتصالاً مباشراً، لذلك فقد خلق ذلك اللوجوس(العقل) الوسيط لكي يخلق به العالم المنظور.

وفي صدر المسيحية، إستعار القديس يوحنا، لفظة(لوجوس)، فاتحة بشارته الإنجيلية، معبراً بها عن لاهوت السيد المسيح (كلمة الله)، مع أن معناها الفلسفي لا ينطبق إنطباقاً كلياً على لاهوت الكلمة، لذلك فإنه، لم يكتفي بإستعمال اللفظ، وإنما شرحه وفقاً للمعنى الجديد، حيث أن اللوجوس الفلسفي مخلوق أما اللوغوس الإنجيلي فهو أزلي، فأضاف القديس ما يوضح ذلك بقوله:

"في البدء كان الكلمة(اللوجوس)، والكلمة(اللوجوس) كان عند الله، وكان الكلمة (اللوجوس) الله"(يو1).

هنا نلاحظ أن كلمة لوجوس إكتسبت في السياق الانجيلي معنىً جديدا ومختلفاً عن معناها العام، وعن مدلولها الأيديولوجي الخاص. اللفظ واحد ولكن معناه العام، يختلف عن معناه الفلسفي الخاص، وهذان المعنيان يختلفان عن معناه الإنجيلي الأكثر خصوصية. فاللوغوس الفلسفي هو مخلوق وسيط؛ اما اللوغوس الانجيلي فهو ازلي: "في البدء كان اللوغوس". وله كمال وجوهر اللآهوت: "واللوغوس كان الله".

وعند اللآهوتيين هو "عقل الله الناطق أو نطق الله العاقل". وهو أزلي بازلية الذات، ويستحيل تصور الذات بدونه.

وعندما نُقل الإنجيل الى العربية، تُرجم "اللوغوس" الى "كلمة"، وأصبحت اللفظة علماً على لاهوت السيد المسيح وحده "كلمة الله". وفقدت معناها اللغوي

المعروف الذي يدل على اللفظ أو القول، كما فقدت خاصية التأنيث والجمع. ولهذا قيل في الانجيل "في البدء كان الكلمة"، ولم يقل:"كانت الكلمة". وقال "الكلمة صار جسدا"، ولم يقل:"صارت جسداً".فالمسيح– وفقا للعقيدة المسيحية– ليس هو كلمة من كلمات الوحي ولا مفردة من مفرداته، وإنما هو علم الله الذاتي.

وقد ميز بعض الفقهاء بين كلام الله المكتوب وهو عندهم حادث أي مخلوق، وبين كلامه النفسي وهو عندهم قديم بقدم الذات أي أزلي بأزليتها. فقولهم بقدم كلامه النفسي يضاهي عقيدة المسيحيين في قدم اللوغوس أو العقل الالهي.

واللوجوس (الكلمة) يقابل صفة العلم الإلهي عند المتكلمين. وفي المسيحية هو أقنوم في جوهر الوحدة الثالوثية.

وللكلمات الثلاثه: "أُقنوم"، و "جوهر"، و"ثالوث"، معاني لاهوتية تختلف عن معانيها الفلسفية والمُعجَمية. فعندما إستعملها اللآهوتيون للتعبير عن ذات الله وصفاته، فإنها إكتسبت معاني أُخرى جديدة غير معانيها الخاصة بالأفكار والرؤى الفلسفية. فالأقنوم–وهو كلمة سريانية–يدل على شخص ذي جوهر مادي مستقل عن باقي الأشحاص؛ أما الأقنوم اللآهوتي فليس بجسم، وليس هو جوهراً منفصلاً عن الوحدة الثالوثية ذات الجوهر الواحد.

وكلمة"جوهر" اللآهوتية تختلف عن الجواهر المادية. الجواهر المادية ممكنات محدودة بالزمان والمكان، وتقبل التغير والإستحالة، وتقبل العوارض، وتحتمل الصيرورة. أما الجوهر الإلهي فإنه جوهر روحاني منزه عن كل ما سبق.

ووحدة الجوهر الأقانيمي، هي وحدة روحية لا يشوبها تعدد أو إنفصال أو أسبقية أو أفضلية. وهي وحدة فريدة لا يوجد ما يشبهها في عالم الفكر والمادة. ولذلك فكل ما خطر ببالك عنها هي بخلافه.

وبسبب التقيد بالمعنى الفليولوجي للكلمات، أساء البعض فهم الإلهيات. ومن ذلك على سبيل المثال، أنكر آريوس لاهوت الكلمة، لأنه فهم اللوغوس وفقاً لمعناه في الفلسفة الأفلاطونية بإعتباره مخلوق وسيط بين الموجود المحض وبين الموجودات المادية. ولم يفهمه وفقاً للمعنى اللآهوتي الجديد. ومثله أساء أكثر المتكلمين فهم عقيدة المسيحيين في الوحدة الأقنانيمية. فنعتوا المسيحيين بالشرك ظانين أن الثلاثة أقانيم هي ثلاثة آلهة مختلفين، وليست ثلاثة صفات في جوهر واحد متحدين. ومع ذلك فقد فهم بعض آخر عقيدة المسيحيين في الأقانيم وفقاً لإعتقادهم بالصفات الذاتية لله. فنقل القمص سرجيوس عن قال القاضي أبي بكر محمد بن الطيب قوله: "إعلم أن النصارى إذا حققنا معهم الكلام في قولهم أن الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم، لم يحصل بيننا وبينهم خلاف إلا في الإسم؛ لأنهم يقولون أنه جوهر، لا كالجواهر المخلوقة. بمعنى أنه قائم بنفسه"[1].

ونقل عن كتاب الرد الجميل للغزالي ما نقله الغزالي بدوره عن كتاب (أُصول الدين)لأبي الخير إبن الطيب أنه قال: "يَعتقد النصارى أن ذات الباري تعالى واحدة ولها إعتبارات: فإن إعتُبر وجودها غير معلق على غيره، فذلك الوجود المطلق. وهو ما يسمونه بأقنوم الآب. وإن إعتُبر وجودها معلقاً على وجود آخر كالعلم المعلق على وجود العالِم، فذلك الوجود المقيد هو ما يسمونه بأُقنوم الإبن أو الكلمة. وإن إعتُبر معلقاً على كون عاقليته معقولة منه، فذلك الوجود المقيد أيضاً هو ما يسمونه بأقنوم روح القدس، لأن ذات الباري معقولة منه. والحاصل من هذا التعبير الإصطلاحي أن الذات الإلهية واحدة في الجوهر، وإن تكن

1) القمص سرجيوس، رد القمص سرجيوس على الشيخ العدوي حول الثالوث، صـ 73.

منعوتة بصفة الأقانيم..وإذا صحت المعاني فلا مشاحة في الألفاظ، ولا في إصطلاح المتكلمين"[1].

وقد نهى الله عن تشبيهه بالمخلوقات الدانية، وعن تصور ذاته وصفاته على نحو تصورهم لصفات المخلوقين، قال:"فبمن تشبهون الله وأي شبه تعادلون به...فبمن تشبهونني فأساويه يقول القدوس"(اش40). "بمن تشبهونني وتسوونني وتمثلونني لنتشابه"(اش46)."من مثل الرب الهنا"(مز113)، "ليس مثل الله"(تث33).

ومع ذلك النهي، فقد ورد في سفر التكوين أن الله خلق"الإنسان على صورته"(تك1). وجاء بالحديث كما رواه البخاري: "خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ على صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً"(البخاري 5759). وقال القديس يعقوب: "الناس الذين قد تكونوا على شبه الله"(يع3).

ويقول المفسرون أن الله خلق الإنسان على صورته من حيث العلم والإرادة والخلود. مع مراعاة أن إرادة الإنسان مقيدة، وإرادة الله مطلقة؛ وعلم الإنسان محدود، وعلم الله ليس له حدود. فالتشبيه جائز، إذا كان الغرض منه هو الإيضاح والتفسير وليس التقليل والتحقير، وإن إتفق التشبيه من وجهه، وخالف من عدة وجوه. مثال ذلك تشبيه اللآهوتيين لأقانيم الثالوث بالشمس التي تتولد منها الحرارة، وينبثق عنها الضوء. فالضوء والحرارة وقرص الشمس يمثلون شمساً واحدة وليس ثلاثة شموس، يجمعهم جوهر وذات واحدة، وليس ثلاثة جواهر أو ثلاث ذوات. كما يشبهونه بالإنسان المؤلف من جسد وروح وعقل. وإذا فقد الإنسان إحدى هذه الخواص فقد ماهيته كإنسان. ومع ذلك فهناك إختلافات كثيرة بين صفات الله، وصفات الإنسان: صفات الله ازلية، وصفات

---

1) القمص سرجيوس، رد القمص سرجيوس على الشيخ العدوي حول الثالوث، صـ65.

الإنسان مخلوقة، صفات الله لا تدرك ولا تحد ولا توصف، بينما صفات الإنسان مدركة ومحدودة. صفات الله خالية من التركيب والإنحلال؛ بينما صفات الإنسان اتحدت فيه عند الخليقة بالامر الالهي، وتتحل وتفترق بالموت. ولذلك نهى الوحي عن مثل تلك التشابيه التي تُنزل الخالق الى درك المخلوقات، على شاكلة الوثنيين الذين تصوروا أربابهم يأكلون ويشربون، ويتصارعون ويتقاتلون، وينتصرون ويُهزمون، ويتفقون ويختلفون، ويتزوجون وينجبون.



الـ (هيولي)، واحدة من الكلمات اليونانية التي إخترقت لغة الضاد، بعد ترجمة التراث الإغريقي الى العربية؛ وتعني مادة، كما تطلق على البدن تمييزاً له عن الروح. وتُرجمت كلمتي أيقونة (εικων)، و مورفي (μορφι) اليونانيتين الى صورة، على الرغم من الإختلاف اللفظي والتعريفي بين الإثنتين: الأيقونة هي صورة الشئ ورسمه، وهي ليست جزءاً من طبيعة الأشياء ومادتها. والشئ لا يتقوم بها ولا ينعدم بدونها. فإذا تحطمت صورة الشخص فهو لا يزال على قيد الحياة، وإذا كبر الشخص وتغير شكله أو مات فلن يؤثر ذلك على الصورة المرسومة له في صباه، لأن لكل من الشخص وصورته جوهر خاص، وكيان مستقل. أما الـ مورفي فهي من طبيعة الشئ. لا توجد من دون الشئ، والشئ لا يوجد من دونها؛ مثل النبتة بالنسبة الى البذرة، ومثل الماء بالنسبة للاكسجين والهيدروجين، ومثل الجين بالنسبة للجنين. فإذا تغيرت مورفي (صورة) الكائن، تغير الكائن.

والمورفي ليست الشكل الخاص الذي يميز هذه البرتقالة عن تلك، وهذه الشجرة عن جارتها، ولا الذي يميز الأفراد عن بعضهم، من حيث إختلاف ملامح الوجه والطول والعرض واللون. فإذا التقطت صورة لمجموعة من الأشخاص من مختلف الجنسيات، بدت لك الإختلافات بينهم: واحد إسود، وآخر أشقر، واحد طويل، وآخر قصير. فهم مختلفون من حيث صورتهم

الأيقونية(الشكلية)، ولكنهم متفقون في صورتهم المورفية(الإنسانية) التي تميزهم عن الحيوانات وعن باقي الكائنات.

ويقول أرسطو أن الهيولي هي مادة الشئ وأصله، ويرى أنها واحدة في جميع الكائنات. والصورة هي المبدأ الذي يميز الأشياء عن بعضها، فهي التي تعطي لكل موجود ماهيته الخاصة. فكل جوهر يتكون منهما معاً، ولا يوجد شئ يخلو من أحدهما.

والصورة التي يعنيها أرسطو في نظرية الهيولي والمورفي (المادة والصورة) ليست هي الشكل العام أو الاطار الخارجي الذي يميز أفراد النوع الواحد، كما بينا؛. ولكن العلاقة بين الهيولي والصورة عنده هي علاقة تلازمية: الهيولي جوهر ناقص لا يكتمل إلأ بمورفيته، والمورفي جوهر ناقص لا تكتمل إلأ بمادتها. ومنهما يتكون جوهر الشئ ونوعه. فمن الهيدروجين والأكسجين وهما غازيان يتكون الماء السائل. ومن الحيوان المنوي والبويضة يتكون بدن الجنين.

وفي كتابه(الطبيعة وما بعد الطبيعة)، يقول الدكتور يوسف كرم شارحاً لنظرية أرسطو:

"فإنه يتصور الجسم الطبيعي مركباً من مادة، ومن مبدأ يرد المادة الى الوحدة ويعطيها ماهية معينة، ويسمي المادة بالمادة الأولى أو الهيولي.. ويسمي المبدأ المعين بالصورة "مورفي". فالهيولي أو المادة أصل إمتداد الجسم في المكان؛ والصورة أصل وحدته وخصائصة الذاتية. المادة أصل تكثر الأفراد في النوع الواحد وإختلافهم في الأعراض. والصورة أصل إتفاقهم في الماهية. فإن كثرة الأفراد في النوع الواحد تعني أنهم متفقون في شئ هو علة تشابههم؛ ومختلفون

في شئ هو علة تمايزهم. أي أن كلاً منهم مركب من شيئين..ويجب الإحتراز من تصور الهيولي والصورة جوهرين تامين متجاورين في الجسم. إنما جوهران ناقصان. الجوهر الناقص هو الذي لا يفسر وحده جميع خصائص الجسم، ولا يحدث جميع الأفعال المعهودة منه. إنهما متحدتان إتحاداً جوهرياً تُكمَل إحداهما بالأخرى، فتقومان جوهراً تاماً واحداً..فالهيولي والصورة النوعية جزءان متكاملان، فلا توجد إحداهما دون الأخرى..كل منهما جوهر ناقص في ذاته، مفتقر للآخر في الوجود والفعل. وإتحادهما أولي لا يسبقه إتحاد. وهذا هو السبب في أنهما يؤلفان هيئة واحدة تامة. وفعل الجسم الطبيعي ليس من الهيولي وحدها، ولا من الصورة وحدها، ولا من الإثنتين متجاورتين متعاونتين، بل من المركب منهما تركيباً أولياً، ومن ثم جوهرياً".

وبهذا المعنى الأرسطي الأصل، يمكننا أن نفهم—مع الفارق الكبير بين طبيعة الله وطبيعة الموجودات- العلاقة بين ذات الله وصفاته، فالذات ليست من دون الصفات، والصفات ليست من دون الذات. والصفات الذاتية لا تؤلف جواهر منفصلة، بل جوهر واحد، كيان واحد، هوية واحدة. وهذا ما أكد عليه القديس بولس في حديثه عن علاقة كلمة الله(لاهوت المسيح)، بذات الله، أو الآب والإبن في الإصطلاح الإنجيلي. ففي رسالته الى مؤمني كنيسة فيلبي، قال عن السيد المسيح أنه صورة الله، مستعملاً كلمة مورفي، وهي نفس الكلمة التي إستعملها أرسطو في نظريته، إستعملها هنا القديس بولس، ولكن بمعنى أكثر عمقاً–لأن لغة البشر عموماً لا تعبر عن الله حق تعبير؛ وإنما فقط للإيضاح والتقريب- يقول القديس بولس عن لاهوت المسيح كلمة الله:

"الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله؛ لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس..."(في 2).

وهنا ترد كلمة(صورة) مرتين: في المرة الأولى ترجمة لكلمة مورفي، وفي المرة الثانية ترجمة لكلمة أيقونة. في الأولى تحدث عن لاهوت المسيح. وفي الثانية تحدث عن ناسوته. في الأولى وصف المسيح بأنه صورة(مورفي) الله، للتعبير عن وحدة الجوهر الإلهي بين الذات والعقل أو بين الله وكلمته، أو بين الآب والإبن؛ وحدة ضرورية؛ فلا تقوم الذات بدون العقل ولا العقل بدون الذات.

وكما أن القديس يوحنا إستعمل كلمة(لوغوس)اليونانية للتعبير عن كلمة الله، ولكن بمعنى خاص ومختلف وأسمى وأعمق من معناه عند افلاطون؛ كذلك أيضاً إستعمل القديس بولس كلمة مورفي(الصورة الجوهرية)، ليعبر بها عن الوحدة الجوهرية التي لذات الله وكلمته. وبمعنى أعمق وأسمى من معناها في فلسفة أرسطوطاليس. مع إقرارنا بعجز المفردات البشرية، المحدودة المعنى، في التعبير عن الله غير المحدود وغير المدرك.

وعن تجسده قال الرسول بولس عن لاهوت الكلمة أنه "أخلى نفسه آخذاً صورة(شكل) عبد (إنسان) صائراً في شبه الناس". وفي موضع آخر قال: "عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد..تراءى لملائكة"(1تي3).

ولما تدرع اللآهوت بالجسد، وتصور بصورة الإنسان، أمكن للإنسان أن يراه. لأن اللآهوت غير محدود، ولا يرى بجهة. وإذا لم يتجسد، أو يتجلى–وهو المتجلي–للإنسان بطريقة ما فلن يراه الإنسان لا في الدنيا ولا في الآخرة رؤية العيان والبيان. وبهذه الطريقة إلتقى المخلوقين بخالقهم.

وبهذا الناسوت صُلب وقُبر وقام لكي يفدي الإنسان المحكوم عليه بالموت. لأن اللآهوت منزه عن الموت والصلب والالام وغير ذلك من الخصائص الناسوتية. وإذا كانت روح الإنسان ذاتها لا تتألم بالآم الجسد، ولا تنحل بإنحلاله. فهل يموت اللآهوت–كلاَّ !

وفي سياق رده على إنتقادات الشيخ العدوي لعقيدة الثالوث، إستعان القمص سرجيوس بما جاء بالقرآن الكريم، قوله: "لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله".

قال: إن هذه الآية لم تُقَل عن أي نبي من الأنبياء لأنهم بطبعهم عبيد لله، ولكنها خَصَّتْ المسيح فقط لأنه روح الله، وكلمته الأزلي ولكونه تدرع بالجسد، "تراه لم يستنكف أن يكون عبداً لله بصفته لابساً لباس البشر العبيد.. وهو كما يقال عن جلالة الملك لم يستنكف أن يخالط العامة".

ومن الأمور العجيبة أننا وجدنا أهل السُنة يؤمنون بأزلية كلام الله، وكفروا المعتزلة على قولهم بحدوثه؛ وفي نفس الوقت يكفرون المسيحيين على قولهم بأزلية كلمة الله !

فقالت المعتزلة بحدوث كلام الله، ظناً منهم بأن قدم كلام الله يفضي الى القول بتعدد القدماء– وهي المسألة التي عرفت في التاريخ بمحنة خلق القرآن– وكأن الله كائن، وعلمه وكلامه، كائن آخر معه؟! وتعرضوا للتكفير من قبل أهل السنة الذين رأوا أن قول المعتزلة بخلق كلام الله لا يليق به خاصة وأن ذلك يفضي الى القول بأن ذلك يفضي الى الحدوث والتغير في ذات الله. ومعاذ أن تكون ذاته تعالى محلاً للحواث.

وللتوفيق بين الرأيين قالت الأشاعرة أن كلامه النفسي ازلي، وأن ما سُطِّرَ في الصحف مخلوق. وقول الأشاعرة في أزلية كلام الله النفسي، يوافق قول المسيحيين بأزلية لاهوت المسيح كلمة الله.

والمشكلة ليست في صواب أو خطأ تصور الناس للصفات الالهية، فهذا امر يفوق قدرة العقل البشري، ومهما قالت الناس فيه وزادوا لن يغير هذا من طبيعة الله ولن يمس ذاته بشئ. ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في إتخاذ الخلاف في الفهم والتفسير وسيلة للتكفير والتنكيل!

والله لا يحاسب الناس على قصر عقولهم عن الإحاطة بذاته وصفاته؛ ولكنه يحاسبهم على حسن أو قبح أفعالهم؛ وعلى إضطهاد كثيرهم لقليلهم، وإستئساد قويهم على ضعيفهم، وإستنجاس من لا يعتقد بعقدهم، ومن لا يدين بدينهم.

الفلسفة هي محبة الحكمة، والفيلسوف هو مُحب الحكمة. وهو الذي ينظر في كل شئ يراه أو يسمعه أو يرد على خاطره نظرة الفاحص المُدقق. وهو لا ينظر الى الحياة والوجود نظرة العاجز المستسلم للخرافات والأوهام، كما يفعل الأسطوريون الذين يحيلون كل ما تعترضهم من مشكلات، وما تواجههم من عقبات الى قوى خفية وغيبيات أسطورية. ويسقطون فشلهم على أوهام وخرافات. ويزدرون العقل، ويسفهون المفكرين والثقات.

أما الفيلسوف فينظر الى الأمور نظرة ثاقبة، ويبحث عن العلل الحقيقية للظواهر المادية والبشرية، مبتدءاً بالسؤال: ما ولماذا وكيف؟ ما الذي يحدث، ولماذا يحدث، وكيف يحدث. ما الحياة وكيف بُعثت، وما الوجود وكيف وجد؟ لماذا الظلم والفوضى وكيف نقصيهما؛ وما هو العدل والنظام وكيف نُجريهما؟

والفلسفة لا تعني فقط ما يضعه هذا الفيلسوف أو ذاك من أفكار في قالب فلسفي بحيث تَظهر لنا فلسفات متباينة، تسير في طرق مختلفة، وإتجاهات متعددة بحيث تظهر وكأنها متناقضة؛ بل وقد تتناقض في بعض الأحيان؛ ولكن الفلسفة هي طريقة تفكير ومنهج إستقصائي يطرق جميع الأبواب ويخترق كل الحواجز عدواً خلف الحلول. ولا توجد أمام عقل الفيلسوف خطوط حمراء يخشى من الإقتراب منها في طريق بحثه عن الحقيقة.

الفلسفة الحقة، هي طريقة بحث حر، وهي نمط تفكير طلق، وهي معول للتنقيب عن جذور الغوامض لكشفها، وعن أصول المشكلات لحلها. هي القالب

الذي يشكل ما يوضع بداخله من أفكار هُلامية غير منتظمة فينظمها، ويجلي حقيقتها، ويظهر مواطن ضعفها وقوتها سواء إتفقت أو إختلفت، أو تناقضت النظريات والرؤى. وهي بمثابة الإناء الذي نضع فيه سوائل يختلف مذاقها وتتعدد ألوانُها.

والفلسفة، التي هي بنت العقل وربيبته، ليست ضد المنطق؛ ولكنها قريبة منه وملازمة له. وهي وسيلة فعالة للتمييز بين الحق والباطل، ولكشف الصحيح من العاطل. وإذا كانت هي رسالة الفكر للعقل، وكان الوحي هو رسالة السماء للعقل، فلابد لهما أن يلتقيا عند محطة التفكير. وحيث أن العقل هو صنيعة الله، وأن الوحي من الله، فلا يجب أن يتعارض ما هو من صنعه، مع ما هو من وحييه، شريطة أن لا نَمرق بالعقل عما يخالف الفطرة الإنسانية، وأن نحرره من الأهواء ومن الأوهام الصبيانية.

وعن أهمية العقل في قبول ما يجود به الوحي، يقول القديس أغسطينوس: "حاشا لله أن يكون خضوعنا لما يعلمه الإيمان حائلاً دون التماس علة الإيمان، لأنه لولا العقل لما كان في وسعنا أن نؤمن".

ويشير الأنبا غريغوريوس الى أهمية الفلسفة وضرورتها بقوله: "بدراسة الفلسفة يُمرَّن العقل على حل المشكلات، وفك الغوامض والمبهمات. فيسهل عليه التفكير في سائر الأمور العويصة. فيصبح أكثر إستعداداً، وأقدر على الإستنتاج والتعليل والقياس...إذ يزداد كل يوم قدرة على التفكير العميق والبحث العنيف الشاق، في مجالات الأمور العقلية المجردة عن العوارض الحسية"[1].

---

1) الانبا غريغوريوس، موسوعة الدراسات الفلسفية، صـ 17.

وعن أهميتها للباحث في الإلهيات، يضيف: "على قدر ما تبدو الفلسفة عند العوام عدوة للدين، تصبح عند رجل الدين الفيلسوف، خادمة للدين".

وعلى الرغم من أن الفلسفة تطرقت للعديد من المسائل الدينية، حتى أنها دعيت(بنت الدين وأم العلم)؛ إلا أنها تختلف عن الوحي والإيمان في كونها تبدأ من العقل وتنتهي الى العقل. وليس لها من برهان على الحقيقة سوى القابلية للقياس، وموافقتها للعقل والحواس. وليس لها من مقياس يزن الحقائق سوى المنطق، بشقيه الصوري والتجريبي. كما أنها لا تؤمن بالمطلق في مجال المعرفة الإنسانية، وان كانت تعترف بالكمال وبالمطلق كفكرتين، وكهدف تسعى اليه، وهي تدرك أنها لم ولن تدركهما.

وعلى الرغم من أن الإتجاه الميتافيزي عند الفلاسفة الأولين يشبه الغيبيات عند رجل الدين؛ لكنهما يختلفان في النهج والمنهج. فأن رجل الدين يعتبر الغيبيات مسلمات وحقائق مطلقة غير قابلة للنقد والمناقشة؛ أما الفيلسوف فينظر اليها بإعتبارها فروض يجب التحقق من صحتها وإعمال العقل فيها. وهذه، إن وافقت العقل صحت وثبتت، وإن لم توافقه وهنت وبطُلت.

ولذلك كانت مهمة الكارزين بالمسيحية شاقة وعسيرة، من جهة؛ وسهلة ويسيرة، من جهة أُخرى. فكيف يقنعون الناس على إختلاف توجهاتهم بأمور إيمانية سرائرية تفوق قدرة العقل الإدراكية؟

لما كان الخالق عليماً بجبلته، ومقدراً للأمور بحكمته، لذلك فإنه أيد المرسلين بالمعجزات الحسية، وأنار النفوس ببصيرة روحية. وهما أمرآن يفوقان تقديرات العقل وقدراته. ولذلك إعتنق المسيحية وآمن بها طواعية العالم والفيلسوف

والصياد والمزارع والحبر والوثني والقائد والغني والفقير، والملك والوزير، آمنوا بها بحريتهم دون أي شكل من أشكال الإجبار، بل وكثيراً ما يتعرض معتنقوا المسيحية للإضطهاد المادي، والمعنوي، على إختلاف درجاته، فقط لأنهم مسيحيون. وبعضهم فضل الموت على ترك إيمانه أو إنكار معتقده المنظور إليه من جهة الجهلاء وغير المؤمنين على أنه وهم وضلال.

ومع أن الفلسفة تدور حول الواقع لكنها أيضاً تطرقت الى أشياء غير مادية، وبحثت في قضايا فوقية تناولها الدين. فقال أفلاطون بوجود عالم المثل بإعتباره العالم الحقيقي؛ مع أنه لا يُرى بالبصر؛ وإنما هدته اليه بصيرته العقلية. وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يبرهن عليه، لا بالمسائل الحسابية ولا بالتجربة الحسية، إلأ انه كان على قناعة وإيمان بما يقول به. وكان يقول بأن العالم المادي الذي نعيشه ليس بالحقيقي بل هو الظل بالنسبة لعالم المثل الذي يرى فيه الحقيقة. وفكرته هذه ليست ببعيدة عن مفهوم الملكوت والفردوس السماوي.

وتقترب فلسفة الأخلاق، التي إنتهجها الرواقيون وعلموا بها، مع دعوة المسيحية الى حياة الفضيلة، وتنقية باطن الإنسان من الشرور، وإكتساب القدرة على قمع أهواء النفس. وتفوقت المسيحية على الرواقية في هذا الجانب؛ وإرتقت بالطبيعة البشرية، ومنحت الإنسان قدرات خارقة في هذا الدرب، الى حد الزهد والتبتل والقداسة والغفران للمسيئين ومحبة الظالمين. أما الفلسفة، وان كانت قد عرَّفت الإنسان معنى الفضيلة؛ إلأ أنها لم تقو على تحقيق القداسة، أو منحها للآخرين. وهو ما أشارت اليه المحاورة التي جمعت بين سقراط وسوفوكليس.

ويشير الدكتور عبد الرحمن بدوى الى أثر المسيحية وتفوقها على الفلسفة بقوله:

"إن المسيحية قد أتت بأفكار جديدة مخالفة كل المخالفة للأفكار الأساسية التى تقوم عليها الفلسفة اليونانية؛ فنشاهد أولاً إن فكرة اللآمتناهى(صفة لله) لم تكن موجودة بالمعنى الحقيقي فى الفلسفة اليونانية؛ وإنما وجدت لأول مرة فى المسيحية...وكذلك فكرة الخلق وهى التى لعبت أكبر الدور فى الإلهيات والطبيعيات لم تكن لتوجد لولا المسيحية....كذلك الحال فى فكرة الشخصية التى لم توجد بمعناها الحقيقي كما سنحدده فيما بعد إلأ فى المسيحية. وبالتالي لم توجد فكرة الحرية فى العصر الحديث إلأ تبعا للمسيحية....وكذلك الحال فى جملة مقالات أُخرى قالت بها المسيحية مثل الخطية والخلاص والسقوط. فكل فلسفة قد دخل فى تكوينها عنصر من هذه العناصر فمعنى هذا أنها مسيحية وأن الفلسفة المسيحية تبعاً لذلك ممكنة الوجود"[1].

لقد نادت المسيحية بتعاليم سامية وبأمور سرائرية، ليس لأنها مذهب فلسفي، ولا لأنها تعاليم باطنية غير معلنة؛ ولكن لأنها رسالة سماوية تهدف الى إنقاذ الإنسان من الموت الأبدي، وتخليصه من الشرور والآثام. وإشتملت على عقائد إيمانية سماوية روحية يدركها الإنسان بالإيمان ويصدق عليها بالعقل والبيان، حتى وإن بدت لغير المؤمنين غير معقولة، ذلك لأنها فوقيه وسامية وتفوق قدرات العقل الإدراكية. فما يعجز عنه العقل، يكمله الإيمان. وإذا كانت الكفاية في العقل، فما جدوى الإيمان إذن ؟ إن الإيمان يفوق كل فلسفة عقلية، وكل حكمة إنسانية. ولهذا يقول القديس بولس للمؤمنين: "كلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع(الفلسفة والمنطق) بل ببرهان الروح"(1كو2). فالإيمان يكمل نقص الفلسفة، ويعوض قصورها الذاتي في تغيير طبيعة

---

1) عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، صـ 54.

الإنسان، وفي إدراك الإلهيات، وفي مقدمتها طبيعة الله. كما يقول القديس ثاؤطوطس: "إن عقل البشر لا يدرك اللآهوتية. وطبيعة اللآهوت بعيدة عن حواس البشر وتعلو كل الأفكار"[1]،

نعم إن طبيعة الفلسفة التأملية تساعد الإنسان على الإنتقال من المحسوسات الى المعقولات، فتنير له ظلمات الجهل، وتقربه من الإلهيات؛ ولكنها تقف عند هذا الحد، فيأتي الإيمان ليكمل ما لا تسطيعه الفلسفة التي تشخص الداء، لكنها لا تشفي المريض. وترسم معالم الحقيقة ولكنها تعجز عن بلوغها.

العقل وحده، عجز عن تخليص النفس من الشرور، وفشل في تحقيق العدالة بين الناس. وإستباح الظلم والعدوان، في كثر من الأحيان، بحجة أن الغاية النبيلة تبرر الوسيلة الشريرة. وهذا في حد ذاته يجرد الغاية من النُبل المُدعَّى لها. لأن الفضيلة لا تتحقق بالرزيلة، والسلام لا يتحقق بالعدوان. والعدل لا يتسيد بالظلم. والحرية لا تتحق بالإسترقاق والعبودية. والمساواة لا تتحقق بالإقصاء والتمييز والإهانة. والعفة والقداسة لا تتحقق بهتك الأعراض وتعمير أسواق النخاسة. وكل هذه الجرائم والموبقات التي لطخت جبين الإنسانية، على مر التاريخ ومدى الجغرافيا، جرت في ظل عقول مموهة، وفي وجود ضمائر مشوهة، وبرعاية مُشرِّعين ظالمين، وغوغاء مقهورين تحت نير السُلطاء والأفاكين.

ومن هنا يمتاز صاحب التفكير الفلسفي على صاحب الفكر الرجعي، في أن الفيلسوف الحقيقي لا يبيح دم من يخالفه الرأي والعقيدة. كما أنه لا يستعين

---

1) إعترافات الاباء، صـ 117.

بالسلطة الزمنية لكي يفرض أراءه وقناعاته على الناس بأي شكل من أشكال العنف أو الإجبار. وفضلاً عن ذلك، هو على إستعداد دائم للعدول عن أي فكرة يثبت خطأُها، والتخلي عن أي نظرية يظهر بطلانها؛ وأن يقبل الحقيقة من أي جهة تجئ حتى لو ترضضت فوقها آراؤه، أو إنسحقت تحتها أفكاره.

أما المتفلسفون والمستعقلون المتسفسطون، فيسيئون إستعمال العقل كما يسيئون إستعمال النقل. ما أسهل عليهم من إباحة دماء من لا يعتنق فكرتهم، ومن يترك نحلتهم، ومن يكشف جهالاتهم. تراهم عُنفاء، متصلفين، مهزومين من أنفسهم، مغلوبين من أهوائهم، مستعبدين لشهواتهم، متعطشين لسفك الدماء، ومسرعين في طريق البلاء.



ينظر المشتغلون بالفلسفة الى ديكارت على أنه رائد الوجودية[1] المثالية. وذلك لإنطلاقه من العقل، وذلك في مقابل الوجودية المادية التي إنطلقت من المحسوسات، وانتهت اليها، بغية تحقيق الرفاهية المادية للإنسان، ولم تعبأ بالمثالية العقلية، ولا بالقيم الروحية.

وقد بدأ ديكارت منهجه البحثي بالتخلي عن كل ما لدينا من أفكار ومعتقدات سابقة، والعودة بالعقل الى حالته الأولى كصفحة بيضاء. ثم إفتراض الشك في كل شئ، بما في ذلك الوجود ذاته، وعدم تصديق أي شئ قبل التثبت من صحته وفحصه من كافة جوانبه، ومن ثم التأني في اصدار الاحكام. واعادة النظر في كل معارفنا، وبخاصة تلك التي توارثناها، وصارت عندنا بدهيات ومسَلَّمَات، دون أن نعطي لأنفسنا الفرصة للتيقن من صحتها بإخضاعها للمنطق والنظر العقلي.

وقال ديكارت أنه يمكنه الشك في كل شئ، فيما عدا الشك ذاته، ولما كان الشك هو عمل الفكر، إذن فإن الفكر هو الحقيقة الوحيدة الموجودة التي يمكن الإعتراف بها. ولا يمكن الشك فيها. ومن ثم فقد إقتصر وجود الذات عنده على أحد جوانبها، وهو الفكر. وقد صاغ تصوره هذا في مقولته الشهيرة:"أنا أفكر إذن فأنا موجود"، و "أنا أشك إذن أنا موجود".

---

1) بحث الاغريق في الوجود العام أو اصل العالم وطبيعة الموجودات. وبحث الوجوديون المحدثون في الوجود الفردي. ومنهم من اهتم بالجانب المادي والحسي من الانسان مثل نيتشه وسارتر. ومنهم من اهتم بالجانب الفكري والمثالي مثل كانت وكيركجورد.

وهو يريد أن يقول انه إن شك في كل ما هو موجود، فلا يمكنه أن يشك في أنه يشك، أي لا يشك في عملية الشك نفسها. وربما نشك فيما نفكر فيه، لكننا لا نشك في أننا نفكر، أي في عملية التفكير نفسها. تلك هي الحقية البدهية الأولى التي توصل اليه ديكات، وبنى عليها فلسفته. ولما كان الشك هو فعل العقل، فلذلك عرفت فلسفة ديكارت بالمثالية، ووجوده بالوجود المثالي، في مقابل الفلسفة المادية الحسية.

وبينما يقتصر الوجود الذاتي عند ديكارت على الفكر، نجد أن فلاسفة آخرين قد أحالوه الى حالات شعورية أُخرى كالارادة، والتغير، والعاطفة. فيرى (مين دي بيران) إن الارادة هي الفعل الدال على الوجود، "أنا أريد، إذن أنا موجود".

يقول دي بيران منتقداً وجهة نظر ديكارت:

"إذا كان ديكارت قد إعتقد إنه وضع المبدأ لكل علم، والحقيقة الأولى البينة بنفسها، بأنه قال: أنا أفكر فأنا إذن شيء أو جوهر يفكر. فإننا نقول خيراً من هذا وبطريقة حاسمة، معتمدين على بيِّنة الحس الباطن الذي لا يقبل الإتهام: أنا أفعل، وأريد، أو أفكر في ذاتى في الفعل، إذن أنا علة، إذن أنا موجود. أو أوجد حقاً على صورة علة أو قوة".

ويرى هنري برجسون في "التطور الخالق" أن الشعور بالوجود يكمن في الإحساس بالديمومة الناشئة عن التغير، "أنا أتغير إذن أنا موجود". ويعلل ذلك بقوله: "إننى ألاحظُ أولاً أنني أنتقل من حال إلى حال. فأنا أشعر بالحر أو أحس البرد. وقد أكون مبتهجاً أو حزيناً. وقد أعمل، أو لا أقوم بعمل ما أو ألاحظ ما يحيط بى، أو أفكر في شئ آخر. فالإحساسات والعواطف والإرادات والتصورات

هي التي تتقاسم وجودى والتى تلونه كل منها بلون خاص واحدة بعد أُخرى فأنا إذن في تغير مستمر".

وعلى الرغم من إختلاف أراء الفلاسفة في تحديد معالم الوجود الذاتي، إلأ أنها تسير نحو غاية واحدة هي وصف الحالات الشعورية والإدراكية التي نمر بها، وإعتبارها الشاهد على وجود الفرد. وقد لاحظنا تنوع المظاهر الشعورية الوجودية ما بين الفكر عند ديكارت، والإرادة عند دي بيران، والتغير عند برجسون، والعاطفة عند غيرهم. وقد وفق كل فيلسون في رسم صورة لهذا الوجود الذاتي بحسب الزاوية التي تناولها بالوصف.

أما كيف يروق للفلسفة عموماً أن تبعث الحياة في هذه الصورة بما يشتمل عليه معنى الحياة من إثراء وبقاء يضمن للذات وجودها المستمر، فهذا ليس من عمل الفلسفة. نعم هي تصف لكنها لا تخلق. إن هذا النقص في الفلسفة تكمله المسيحية. فالوجود الذاتي في المسيحية يعد بدهية، بخلاف الفلسفة التي تبحث في إثباته بطريقة إستدلالية تتضمن مقدمة ونتيجة تفصلهما كلمة "إذن". والوجود في المسيحية متحقق ليس في الفكر فحسب، ولا في الإرادة وحدها، وإنما في الإنسان بوصفه وحدة واحدة. وقد إستمدت الذات وجودها من الله الذي خلقها على صورته ومثاله(تك1) من حيث الارادة والخلود.

لكن هذه الذات المفردة لا تقوم بذاتها على الرغم من إنفصالها وتمايزها عن الذات الكلى(الله)؛ ولكنها تستمد وجودها منه. فهذا هو سر وجودها وضمان بقائها في أن تظل متصلة به. وفي إنفصالها عن الله تفقد ماهيتها ووجودها. ففي اللحظة التي إنفصلت الإرادة الفردية عن الله "يوم تأكل منها(من الشجرة)"، فقدت هويتها "موتاً تموت"(تك2). وهو ما عبر عنه القديس أثناسيوس في(تجسد

الكلمة) بقوله: "لأنهم إن كانوا بحضور (الكلمة) وتعطفه، قد دعوا إلى الوجود من الحالة الطبيعية الأولى وهى عدم الوجود، فإنهم بطبيعة الحال، متى تجردوا من معرفة الله، عادوا إلى العدم (إلى ما لا وجود له). لأن كل ما هو شر فهو عدم، وكل ما هو خير فهو كائن وموجود. ويجب أن تكون النتيجة بطبيعة الحال، الحرمان إلى الأبد من الوجود، طالما كانوا يستمدون وجودهم من الله الموجود بذاته. وبتعبير آخر يجب أن تكون النتيجة الإنحلال، وبالتالي البقاء في حالة الموت والفساد".

ولذلك فإن الوجود الذاتي يتقاسمه طرفان: أحدهما ثابت هو من جانب الله الذي أحب الإنسان وأوجده. والطرف الأخر هو الذات نفسها، إذا حافظت على بقائها في معية الله من خلال محبته وطاعته "أن أحبنى أحد يحفظ وصاياي".

ولكن لما إنقطعت العلاقة بين الذات وخالقها، فقدت وجودها. ولكن الله من جانبه أعاد الوجود للإنسان مرة ثانية، "لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية"(يو3). وبهذا عادت الذات من الفساد إلى الوجود. ولكي تضمن الإستمرار والثبات على هذا النحو، فعليها أن تسير في معية خالقها.

من هنا يمكن أن نضع معادلة الوجود على نهج السابقين ووفق المفهوم المسيحي له هكذا: "أنا أؤمن فأنا موجود". وبعبارة أخرى: "أنا أؤمن، وأسير في معية الله، فأنا موجود".

ولا يتأتى للإنسان أن يشعر بذاته وبوجوده بعيداً عن الله. كما يقول أغسطينوس: "يارب خلقتنا لك، ولن تجد نفوسنا راحتها إلأ فيك".

إذن فإن وجود الذات يكون في تسليم الإرادة الفردية إلى الإرادة الإلهية. وكلما

تخلص الفرد من الذاتية الوجودية القائمة على التملك والإستحواذ، المادي والمعنوي(كالمال والسلطة)، كلما شعر بوجوده.

هنا نرى الوجود الحقيقي الحي والدائم. الذي يكتمل الإحساس به وتتحقق صورته الكاملة في البذل كقول السيد المسيح: "من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها"(مت10).

ففي إفناء الذات إيجاد لها، وقد قال له المجد: "من آمن بي ولو مات فسيحيا" (يو11). أي لا ينقطع وجوده بالموت. بعكس الوجود الفلسفي الذي يتوقف دون ريب وينقطع بالموت، أو على حد تعبير أحدهم "فلا تقف الحركة إلأ إذا وقف تحقيق الإمكانيات، هذا لا يكون إلأ في الموت".

الحق أن فهم الوجود وفق عقيدة الخلاص، وعدم الوجود وفق الخطيئة والبعد عن الله، من شأنه أن يحقق للإنسان ما لم تقوى الوجودية المثالية على تحقيقه، لأنها لا تملك إلا أن تصف الحالات الوجودية للفرد ولا تحققها. كما أنها لا تقدم ضامناً لاستمراره أبدا.

ومن شأن هذا الفهم المسيحي للوجود أن ينقذ الإنسان من شطحات الوجودية المادية التي أنكرت جوهر الإنسان المتمثل في الجانب الروحي الخالد، وإختصرت وجوده في حزمة من الغرائز تنتهي بنهايته عند الموت ليفجأ بالمصير المحتوم الذي لا مفر منه.

"هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية"(يو3: 16).

شطحات وجودية:

ينزع العلماء والفلاسفة الحديثون مثل توم ستونير، وفولمر، وممفورد، وغيرهم إلى توقع إستحداث قوانين بعينها يظنون أنها هي التي تحكم سلوك الكائنات الحية بما فيها الإنسان. وقالوا أن القوانين الفيزيقية للمادة هي بعينها التي تتحكم في طريقة تفكير الإنسان. وهي التي تؤثر في مشاعره وأحاسيسه وإنفعالاته بإعتباره حلقة في سلسة الوجود المادي. وهذا غلو كبير من جانب القائلين به، لانه يجعل الحياة الإنسانية مثل آلة ميكانيكية خالية من العقل ومن حرية الإرادة. ويؤدى هذا إلى إنكار وجود الروح، والنفس العاقلة، بإعتبارهما جوهران مغايران للجسم، وهما سبب الوعي والإدراك. والمتحكمان في سلوك الإنسان والضابطان لإنفعالاته وغرائزه وإحتياجاته وسلوكياته وأفعاله. والدليل على ذلك أنه في غياب العقل، تتوقف حركة الإنسان.

ولولا الإدراك عند الإنسان، لما كان هناك إنفعال يعتروه الحزن والفرح والإنفراجة والكآبة. واذا لم تعي النفس الجمال لما إفتتن به الشاعر والفنان. ولولا وجود الروح لما بكينا عزيزا فقدناه، ولما إنتشينا لخل لاقيناه. وليس كما زعم سنكا من أن "الغضب والحب والحزن وغيرها من أهواء النفس أجسام".

إن هذا الغلو الكبير من جانب القائلين به يجعل الحياة الإنسانية آلة ميكانيكية تفتقر إلى الحياة والعقل والإرادة.

وهذه النظرية ليست جديدة على الفكر الإنساني، فهي تطوير للمذهب الذري الذي قالت به المدرسة الإيونية في القرن السادس قبل الميلاد. وهي المكمل للداروينية التي ترى أن الإنسان ما هو إلأ حلقة في سلسلة التطور الوجودية.

تشبه المراحل التي تمر بها الفراشة بدءا من اليرقة الساكنة، فالدودة الزاحفة، فالفراشة الطائرة. وفي هذه الحالة يصبح سلوك الإنسان السوي بإنفعالاته ومشاعره قيد التفاعلات الكيميائية والفيزيائية التي تحدث داخل جسمه.

وتكون العلاقات القائمة بين البشر وبعضهم شبيهة بعلاقة الإلكترونات داخل الذرة. ومن ثم فلا تكون هناك حرية ولا إرادته. ولا يكون السلوك الإنساني صادراً عن فعل إرادي حر، بل عن فعل ميكانيكي غائي شبيه بسلوك الحيوان. أو كما يقول العلماء:

"وفى تلك الحالة تكون العلاقات بين المحبين هي علاقة جاذبية مماثلة لعلاقة الجاذبية بين الجزيئات والذرات. وتخضع للقوانين الخارجية. أما عملية إختيار الحبيب دون ملايين البشر، فهي عملية إختيار حر(!)، تخضع للطبيعة الداخلية للمحبين؛ مثلما أن إختيار ذرة الهيدروجين لذرة الأكسجين هو إختيار حر يخضع للقوانين الداخلية".

إننا لا ننكر ما للجانب الجسمي من تأثير على الآخر النفسي كأن يصاب شخص بالأكتئاب– وهو مرض نفسي– نتيجة لتعرضه لمرض من الأمراض الجسمية الخطيرة التي لها تأثير على حياته. ولكن ذلك لا يسري على جميع الناس، فالأبرار يقبلون الآلام بغبطة ويقدمون على الموت بفرحة وبهجة.

من ذلك ومن غيره لا يمكن إعتبار أن التفكير من فعل المخ وحده بدون قوة العقل النفسية. وفي ذلك يقول مارين دى بواليف في (ميزان الحق):

"المادة لا يمكنها أن تكون علة للإفتكار الذي هو غير محدد وكلى. ثم أن الإفتكار ملازم للإرادة... والحال أن المادة ليست بعلة للإفتكار، فإذاً ليست بعلة للإرادة أيضا".

وقال بشأن النفس: "إنها تمتد بعقلها وتتذكر قديم الوقائع. وتجول في الأعصر الخالية. وتنظر في الحوادث الماضية. وتدرك مبادئ العلوم العامة. وتفهم حقائق وكليات لا تعلق لها البتة بالحواس الجسدية".

وهناك فريق آخر يرى أن حركة الأجسام المنتظمة والدقيقة إنما تتم بقدر من الوعي موجود على نوع ما في المادة أشبه بالعقل داخل الإنسان. هم يتنكرون لوجود ذلك العقل المدبر لتلك الموجودات. وينكرون تلك القوة التي أبدعت ونظمت العلاقات داخل الأجسام والظواهر والنواميس الكونية.

ويدور العلماء في حلقة مفرغة. فلا هم يعترفون بوجود الله خالق هذه جميعاً، وواضع نواميسها، ولا هم يستطيعون تقديم الدليل المادي على أن المادة الجامدة تستطيع أن توجد بذاتها، وتهب الحياة لذاتها، والعقل لذاتها، والنظام لذاتها. وهل تقول التجربة أن جزيئات المادة تفاعلت مع بعضها بنسب معينة وأنتجت لنا هرماً أو بيتاً أو سيارة أو طائرة أو غير ذلك ؟ فكما أن وراء هذه الأشياء عقل مغاير وإرادة حرة رسمتا وصنعتا ذلك، فكذلك أيضاً وراء الكون ونواميسه عقل كلى وإرادة مطلقة، هو الله تبارك إسمه.

لقد ساهمت الوجودية المادية في تسريع عجلة التقدم المادي، ولكنها لم تكن السبب الأوحد لهذا التقدم؛ والدليل على ذلك أن اعظم حضارات العالم القديم ظهرت في أوساط غارقة في الميثولوجياً. وإنما من الممكن ان الوجودية المادية-

عندما تختفي القيم الروحية، ويصبح كل شئ مباحاً–تكون السبب الأول لتدمير العالم، سواء بقصد أو عن غير قصد، بالتلوث والأمراض أو بالحرب والدمار.

لقد نجحت في تحرير الفرد من المجموع، ولكنها عملت–بوعي ثاقب–على سجنه في زنزانة الجسد والمادة، ولم تحرره من ذاته: لا من سوط الغريزة، ولا من سطوة الموت والفناء. كما عملت على تنامي سقف التحرر اللاّ معقول في بلاد الغرب، والى الإنتشار الممنهج للأفكار والسلوكيات الشاذة، مثل تقنين تعاطي المخدرات، ومعاداة الذكورية، وغيرها من الأفكار والسلوكيات التي أفقدت الحرية معناها، وأفرغت الإنسانية من فحواها. وجردت الفرد من إرادته. وجعلت منه كائناً هلامياً، تقوده غرائزة وأهواؤه غير المنضبطة، وتشكله بأشكال مختلفة بحيث يصبح بلا معالم وبدون هوية. وهذا من شأنه أن يدمر لبنة المجتمع، والبناء المجتمعي برمته فيصبح في النهاية لقمة سائغة بين فكي بين الإباحية المفرطة، والرديكالية المتطرفة.

من أعلى الجبل القى كلمة الله كلمته، مثلما تلقى كليم الله كلامه من أعلى طور سيناء. بصوت هادئ وديع القى السيد المسيح عظته جالساً. لم يكن بحاجة الى ما يعين الخطباء على التأثير في نفوس السامعين من فنون البلاغة كالسجع وغيره من المحسنات الكلامية التي برع فيها الشعراء والخطباء في شتى الأرجاء والبقاع.

وقد بدأ السيد عظته بتطويب الأبرار. ثم شرع في إرساء دعائم شريعته السامية للنهوض بالجبلة الضعيفة، وللتسامي -وليس للانتقام والتشفي- بالبشرية، واقتلاع الشرور من جذورها. حاثا المؤمنين على أن يأتوا الصلاة والصوم والصدقة في الخفاء. وداعياً إياهم أن يكونوا قدوة حسنة في القول والفعل كما النور الذي يهدي الضالين- وليس كما النار التي تحرقهم- وأن يطلبوا المغفرة- لا أن يكيلوا اللعنات-للمسيئين. والا يكنزوا المال الفاني؛ بل أن يدخروا الأعمال الصالحة. ثم نهاهم عن إدانة الآخرين حاثاً إياهم على أن يحاسب كل إنسان نفسه لا غيره، وأن ينظر الى خطاياه، بدلاً من التربص بهفوات غيره.

وآثرت أن أنقل للقارئ العزيز بعضاً من تلك الموعظة الخالدة التي دونها القديس متى في الأصحاحات من الخامس الى السابع من بشارته.

يقول السيد المسيح، له المجد:

"طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزانى لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش الى البر

لأنهم يشبعون. طوبى للرحماء لأنهم يرحمون. طوبى للانقياء القلب لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات...أنتم ملح الأرض..أنتم نور العالم.. فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات...

سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل؛ وأما أنا فأقول لكم: إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم؛ ومن قال لأخيه رقا(تافه) يكون مستوجب المجمع؛ ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم. فإن قدمت قربانك الى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك. فاترك هناك قربانك قدام المذبح وإذهب أولاً اصطلح مع أخيك وحينئذ تعال وقدم قربانك.

إن كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه...سراج الجسد هو العين. فإن كانت عينك بسيطة، فجسدك كله يكون نيراً. وان كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً...من طلق امرأته إلأ لعلة الزنى يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني.

لا تحلفوا البتة لا بالسماء لأنها كرسي الله. ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه... بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا وما زاد على ذلك فهو من الشرير...

لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر ايضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً...من سألك فاعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده.

أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا الى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك. وإن سلمتم على إخوتكم فقط، فأي فضل تصنعون؟ اليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا؟ فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل.

إحترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات...وأما أنت فمتى صنعت صدقة، فلا تُعرف شمالك ما تفعل يمينك. لكي تكون صدقتك في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية...

ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس. الحق أقول لكم انهم قد إستوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صليت فادخل الى مخدعك، واغلق بابك، وصل الى أبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية...

ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين، فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين. الحق أقول لكم انهم قد إستوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك، واغسل وجهك. لكي لا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية...

إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم، لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم. لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض.. بل

إكنزوا لكم كنوزاً في السماء..لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك ايضاً..لا تقدرون أن تخدموا الله والمال .. لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره. وهذه كلها تزاد لكم...

لا تدينوا لكي لا تدانوا. لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون. وبالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم. ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها..يا مرائي أخرج أولاً الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك...فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم إفعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم، لأن هذا هو الناموس والأنبياء.."(مت 5– 7).

تلك سطور من الإنجيل الشريف الذي يدعون تحريفه، والذي تصادره سلطات بعض الدول، وتجرم التبشير به؛ والذي تجيز كتب الفقه الإستنجاء بورقه– سامحنا الله جميعاً.